الجزء الثالث والرابع ٢٤٥، ٢٤٦ المجلد الحادي والعشرون



آذار ونيسان سنة ١٩٤٦ شهر ربيع الثاني وجمادى الأولى سنة ١٣٦٥

القول في اتكالنا [1]

كان عرب الجاهلية المثل الأعلى في الاعتماد على النفس، اشتهروا بمغامراتهم ورحلاتهم لغرض التجارة، وكانوا اذا شحت عليهم مياههم وأقحطت أرضهم تنبهت فيهم غريزة حفظ النوع فلا يرون غير الاعتداء على جيرانهم، يستلبون منهم ما يسد جوعتهم.

ولما جاء الاسلام وبطل الغزو والتعادي أصبحوا يتكلون على خالقهم كما كانوا يتكلون على أنفسهم، وعُوِّضوا عن الغصوب بما أتاهم به الحدث الجديد من المغانم، وكانوا اذا فتحوا بلداً هبوا لاستعمار غَوْره ونجده، فشادوا المدن، وأحيوا الموات، وفجروا الأنهار، وأقاموا السدود، وعمروا الرياض والغياض، وبفرض العطاء أي الرواتب لأشرافهم ومن تبعهم، وبتحريم الربا والبيوع الفاسدة، وزعت الثروة فزادوا توسعاً في معايشهم أكثر من يوم كانوا فيه ولا قوة تحميهم في السفر والحضر.

شَرْع العرب موجز وسريع التنفيذ، وتدابيرهم معقولة مقبولة حتى في الجاهلية، وكانوا اذا صح عزمهم على أمر فيه صلاح معادهم أو معاشهم تجلى حزمهم وجِدّهم، وهذه الصفات تقوى وتضعف فيهم بحسب العصور والأمصار. ومنذ فجر الاسلام أنشأوا يبنون جوامعهم ومساجدهم بأنفسهم، وينصبون لها الخطباء والأئمة، ويقومون

(١) من كتابنا الجديد «أقوالنا وأفعالنا» وهو الى الآن مخطوطة.

لشؤونها لا يرزأون بيت المال شيئاً ، كانوا يعرفون عالمهم وتقيهم وداهيتهم كما عرفوا في جاهليتهم شاعرهم وخطيبهم وكاهنهم ، وما كان العارف فيهم — وعلى كل واحد زاجر من نفسه — يتصدى لما ليس له بأهل ، فلا يقضي ولا يفتي ولا يعظ ويخطب الا اذا شهد له الثقات بالفضل حتى لا يضل به المهتدي ويزل المسترشد .

ولما نزع العرب في العصور التالية لاقامة رباطاتهم ومدارسهم ودور مرضاهم وضيافتهم وسائر مصانعهم حبسوا عليها من الأحباس ما يقوم بها على الأيام ، طيبة نفوسهم بما بذلوا ، والى هذا كانوا يعاونون حكوماتهم فيما يقيم المرابطين من مؤنة وخيل وسلاح ، لعلمهم بأن عزهم مناط عزة حكومتهم ، وسلامة أعراضهم وعروضهم فى دفع أذى أعدائهم عن ديارهم ، وكان يندر فيهم من من يحيد عن سنن الفضيلة ، يرون الأمانة أمراً طبيعياً ، والصدق فرض عين ، والبعد عن المأثم نبلاً ومروءة ، ولذلك خلا بعض أمصارهم في القرن الأول من السجون لندرة الجناة والمجرمين .

وقلّت ثروة العرب ، وضعفت مقومات حياتهم ، وغدا وعاظهم وحكاؤهم من الفريق الذي عزّ عليه تحصيل رزقه من أبواب المعاش المعروفة ، فلجأ الى دعوى خدمة الدين يبيع بضاعته من الراعي والرعية ، وأصبح قضاتهم يصانعون في قضائهم ، ويصادرون كما يصادر لصوص العمال ، فزال جلال القضاء لعدم الثقة بالأمناء عليه ، وما وصف الإمام أبو يوسف في رسالته الى الرشيد قضاة عصره الا وصف عارف بما هنالك اذ قال : « وما أظن كثيراً من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث » ثم أخذ القضاة يبتاعون مناصبهم ممن كانوا يدعون ملوكاً فيجمعون أموال السحت وناهيك بها من سبّة .

ومع أن الفردية تغلب على العربي أكثر من الجماعية ، كان من العرب من يشتركون في مسائل تجارية كبرى ، ويقسمون الأرباح بينهم ، ويرضى كل واحد بما قسم له ، وقلّ أن يرجعوا في اختلاف ينشب بينهم الى صاحب السلطان ،

يفضون خلافاتهم بمعرفة أهل الرأي والتجربة منهم ، والى اليوم نرى في نجد مع بعدها عن العمران شركات تجارية جمعت رؤوس أموالها من الأغنياء والفقراء واشترك بها الأقوياء والضعفاء ، على مثال شركات الغربيين ، وفيها الأمانة ماثلة كثيراً .

كانت أعمال الأفراد في معظم العصور أكثر نشاطاً وأوفر عائدة مما تتولاه الدول ، ذلك لأن عمل الفرد تظهر فيه المسئولية فيحتاج الى التدقيق ، وفي عمل الدولة تختفي التبعات ، ويزيد الاسراف في النفقات ، ويتهاون بالجزئيات وأحياناً بالكليات ، ولذا رأينا السكك الحديدية والمعامل والمدارس وكل ما تديره الحكومات في الغرب والشرق من المشاريع أقل ربحاً وأكثر نفقة مما يديره الأهلون .

ومتى ضعفت ثقة الناس بعضهم ببعض ، تفتح للحكومات منافذ التدخل في أمور الرعية ، فتستتبع بعض طبقاتهم على ما تهوى ، ويقوى بذلك سلطانها ، وتتشعب فروع أعمالها ، وتتضاءل سلطة الفرد ، ويفنى في المجموع . واذا قل اعتماد الناس بعضهم على بعض يكلون الى ولاتهم أمورهم ، ويطلبون اليها العناية بما ليس من واجبها معاناته ، ويطالبونها أن تتولى منهم ما يتولاه الوصي من أمر اليتامى جعلوا تحت وصايته .

كلما عول الناس على أنفسهم وتركوا الحكومات وشأنها اغتنوا وسعدوا ، وقد يكون غير المسلمين من سكان هذا الشرق القريب أهنأ عيشاً من الكثرة الغامرة ، ومنهم من لم يتكلوا على الدولة في كل شيء ، يرحلون ويغامرون ويغتنون وينعمون ، وشهدنا من مارسوا حرفهم من المحامين والأطباء والمهندسين مستقلين عن الحكومات ، أوفر غنى وهناء ممن تقلدوا القضاء ومسائل الصحة والعمائر ، واتكلوا على الدولة مكتفين بالرواتب المحددة . نعم كلما عظمت سلطة الدولة ينشأ في أبنائها الاتكال ويخفى الاستقلال ، وتوشك أن تظهر عليها أعراض الانحلال ، وان كثر سكانها واتسعت رقعة بلدانها .

القوة للرعية في الشعوب الانكلوسكسونية والدولة في الشعوب اللاتينية ، وأثر التربيتين الاستقلالية والاتكالية محسوس في أرض الفريقين وفي الأقطار التي

استعمروها . قال أحد وزراء الانكليز : أنا لا أقول ان الحكومات أبداً شؤم على الشعوب بل أقول وبل لأمة تترك المجال للحكومة تنظِّم لها اليوم بعد اليوم من الطفولة الى الشيخوخة حركة أفكارها وما ينهض بها الى العلاء ، وقالت احدى المجلات الانكليزية مما خُصَّت به أرضنا من الميزات ميزة تعد في مفاخرنا ، وهي اننا ندير أمورنا بأنفسنا بدون تدخل الدولة . ومن أعظم البراهين على ما يعمل الاستقلال في الفكر والارادة ، وما ينجم عن الاتكال من انحلال وضعف ، ما حدث في تأسيس الولايات المتحدة الأميركية وكندا واوستراليا ، فان جماعات من الانكليز غضبت عليهم ديارهم لشقاوتهم فنفتهم ، أو غضبوا هم على الدولة لاضطهادهم في مذهبهم ، أو تعذر العيش عليهم في مساقط رؤوسهم فنزلوا تلك الأقطار البعيدة ، وما عتموا أن أسسوا معتمدين على انفسهم ممالك عظيمة جاءت في بعض مظاهرها أرقى من مواطنهم الأصلية .

وهذه طائفة المورمون في الولايات المتحدة ، وهي تقول بتعدد الزوجات الى ما لا حد له ، قد حاربتها حكومة تلك الديار في أول ظهورها حرب إبادة ، فجلا بقية السيوف من أبنائها الى صقع قاحل ، فما هي إلا اعوام قليلة حتى عمروه فأصبح كسائر الولايات المتحدة بمدنيته وصناعاته ورخائه ، ولو كان المورمون شعباً لاتينياً أو سامياً لانقرضوا لما لقوا من شدة ، أو لعاشوا عيش تذبذبٍ في انتظار نجدة من دولة ، او منحة من جمعية ، او نفحة من غنيّ جواد .

ستون الف جندي وثلاثة آلاف موظف انكليزي اخضعوا بفضل اخلاقهم لسلطان بريطانيا العظمى نحو اربعمائة مليون من الهنود يساوونهم بذكائهم ، واستولى الاسبان على الولايات اللاتينية التي صارت بعدُ جمهوريات اميركا الجنوبية وما عهد فيها الا الفوضى ، والسبب في ذلك اخلاق الفاتحين . وحكمت اسبانيا جزيرة كوبا ثلاثمائة سنة فما كان فيها الا الشقاء والظلم فلما آل حكمها الى الولايات المتحدة اصبحت في ثلاثين سنة من اسعد الممالك .

يطلب الشرقي كل شيء من حكومته ، ولذلك يقل ابداعه ، ولا يطرد سير

حياته ، ولا تنمو ثروته ، ولا تدوم نعمته . الشرقي عبء ثقيل على ابيه وأمه ، وعلى أخيه وأخته ، وعلى مورّثه وأسرته ، وعلى من يعتقد فيهم القدرة من أهل حيه وبلده ودولته ، وعلى من يحبه ويعطف عليه ، وفيه شيء من النقص لا تجد مثله في صاحب التربية المستقلة وهذا لا ينتظر ارث ابيه ولا أمه ولا مورثه أياً كان ، ولا البائنة التي تأتيه بها زوجته ، ولا نصيبها من إرث أبيها ، يجمع ثروته بكده وجده ، ولا يتوقع مجيئها عفواً صفواً .

روى اصحاب الاخبار ان احد ابناء رؤساء جمهورية الولايات المتحدة شوهد غداة انتخاب والده للرياسة مبكراً الى معمله على عادته ، فقيل له : كان عليك ان تجعل من هذا اليوم عيداً لك ، وتنقطع عن العمل ، وقد غدا أبوك رئيس الامة فقال الرئيس أبي وأنا هنا عامل اشتغل لمستقبلي .

وهذه مصر ولا نمثل بغيرها هل تم لها الاستقلال في التربية مقدمة الاستقلال السياسي ام هو الاتكال لاشيء غيره ؟ الحق ان التربية الاتكالية بادية في مصر والاستقلال الشخصي كهلال الشك لايكاد يُرى . كأن التربية اللاتينية التي لقفتها مصر لاول نهضتها قد امرضتها فلم تسلم الى اليوم من تأثيراتها على ماعولجت به من طرق حديثة في التربية . ولو كان هناك خلق استقلالي ماشهدنا القوم يتهافتون على التوظف في الحكومة هذا التهافت المبكي .

ان أمة يتهالك المتعلمون من بنيها ليجعلوا منهم آلات تتحرك بحركات غيرهم ، ويعيشون كالحلمة الطفيلية بامتصاص خزانة الدولة ، والاعمال الحرة الرابحة كثيرة أمامهم يتركونها للنازل عليهم هي امة محكوم عليها باسوإ مايحكم به على مصاب بمرض عضال ، وأي مرض افتك في النفوس من مرض الاتكال الذي يقضي على فضائل جمة في الانسان ، ومنها عزة النفس والاقدام .

يقول الدكتور حافظ عفيفي باشا في كتابه على هامش السياسة : أما هذا التعليم الذي يحوّل جميع شبان البلاد الى موظفين ، يعملون دائماً ساعات محددة في النهار تحت اشراف رؤسائهم ، ويتناولون أجراً محدوداً يزيد في فترات معينة

بقدر معلوم ، ويقضون حياتهم على هذا النظام الميكانيكي الذي لاأثر فيه للمجهود الشخصي ، ولا يفتح باباً للمجازفة والمغامرة او تحمل التبعات ، فهو تعليم محدود الغرض لايفيد الا في تخريج العدد اللازم من الشبان لملء وظائف الحكومة ، ولكنه مضر من جهات اخرى لأنه يفسد الغرائز الطبيعية في جميع الشبان الذين يزيدون عن هذه الحاجة .

وأنا اعتقد ان هذا التعليم يفسد غرائز المستخدمين وغير المستخدمين من الشبان ، ويقتل فيهم روح الاستقلال ، فيصبح الاتكال فيهم طبيعة ثانية ، وقد شاهدت اذكياء أتموا دراساتهم الثانوية او العالية ورجعت عليهم بعد سنين وقد اخملهم الاستخدام فصاروا الى خنوع ومسكنة ، واستولى عليهم القنوط والتشاؤم ، وامسوا لايفكرون إلا في تخطي الدرجات والحصول على العلاوات .

قال لي صديق انه كان في بعض العشايا في مقهى سان استيفانو بالاسكندرية ، فجاءه الغلام الرومي يقول له : ياسيدي الدكتور اجلس هنا فانه مكان اروح لنفسك ، وأشار الى مكان آخر لاتضربه الشمس ، فتعجب صاحبي من مناداة غلام المقهى له مناداة من يعرفه ، فسأله وهل عرفتني من قبل ؟ فقال له : وكيف لاأعرفك وانت الذي خدمت مصر بما املته عليك وطنيتك وكنت كيت وذيت . ثم اذا انا لم اعرفك فمن الواجب ان يعرفك ؟ أنا ياسيدي خريج مدرسة التجارة العليا في اثينة ، وتسألني لم امتهن هذه المهنة فأجيبك لاني اتربح منها وأنا في اول العمر اكثر مما اربح من غيرها . ولما روى له محدثي هذا وهو يعجب من حال الخادم قلت له : لاتعجب ياأخي فان القوم من اقدر الامم على الكسب ولو أحرز احد مواطنيك شهادة من مدرسة التجارة العليا ماكان هدفه الا ان يتقلد وظيفة صغيرة في المدرسة التي تخرج باساتذتها ، أو ان يعين في احدى دواوين الحكومة ، أو يقنع بشيء يتقنه اكثر منه من لايحمل مثل شهادته ، أو يبقى متعطلا خاملاً حتى يهيأ له رزق هين من عمل يعتقد هو انه شريف ، وهذا هو الفرق بين تعليمنا وتعليمهم

وتربيتنا وتربيتهم ، فلاعجب والأمر على ماذكر ان يترك الواحد منكم عشرات الالوف من الدنانير لاولاده فينفقونها في اسرع مايمكن ، ويموت الرومي موسراً وكان في بدء امره فقيراً معسراً .

كثيراً ماكنت اسأل بعض الآباء عن اولادهم وما اختاروا لهم أو مااختاروا هم لأنفسهم من مسالك لتحصيل رزقهم ، فكان معظمهم في جانب الاتكاليين لا الاستقلاليين ، أي انهم يؤثرون الاعمال الهينة المضمونة ، ولا ترتفع بهم هممهم الى بذل النشاط اللازم أول دخولهم معترك العالم ، ولو انك قرأت باب الوفيات في صحيفة يومية مصرية تذكر اسم المتوفى كما تبلغها أسرة الفقيد مشفوعاً باسماء انسبائه واولاده ووظائفهم لخيل اليك ان كل متعلم في هذا القطر موظف ، وكل مشهور ليس في ذوي قرباه إلا خدَمة حكومة غالباً ، وقد يرزق الرجل بضعة بنين فلا يكون فيهم إلا عامل في الحكومة او أخ له يستعد في المدارس ليقفز الى الدواوين . وأخذ البنات في العهد الأخير يقتدين في هذا الشأن بالبنين . ولا يسع من يشهد هذا إلا ان يأسف للذكاء يثلم حده فيما تقل فائدته ، وللمواهب تضيع على غير طائل ، في قطر حوى جميع أسباب الراحة ، ولا ينعم فيه على الاكثر إلا المستخدمون أو من خلف لهم أهلهم الأطيان والعقارات والاموال المجموعة في المصارف ، وفيه كل شروط الغنى ولا يغتني فيه إلا الغريب او من يتصل بالحكومة بسبب .

ماعهدت أمة كالأمة المصرية تنفق معظم جبايتها على ترفيه موظفيها ، وهم فائضون عن حاجتها يكفيها نصفهم لو تدبرت ، ولو لم يكن الغرام بالتوظف مما عم الطبقات المستنيرة لوجهت الدولة شعبها وجهة اخرى على حين نرى اكثر ماتنصرف اليه همة من يأتون الى الحكم تعيين اعظم عدد ممكن في الادارة من حزبهم ، تخلق لهم اعمالاً ترضيهم بها ، ولو كانوا غير صالحين للاشغال ويختلف نواب الامة الى ابواب الوزارات يشفعون في توظيف ابناء اقاليمهم وادخال السرور على ذويهم بالعمل على ترقيتهم وترفيههم . وهل بعد هذا

برهان على انتشار الاتكال في مصر اصدق من هذا المثال ؟ ولو كان للتربية الاستقلالية السلطان الاكبر على نفوس المصريين لرأينا من تضيق بهم اسباب العيش يهاجرون الى بلد سحيق لكسب رزقهم كالشاميين والحضارمة تحلو لهم الهجرة ولو الى القطب الشمالي وخط الاستواء ٠

تمركزت كل قوة في وادي النيل بالحكومة ، فربطت رعاياها برباط أضعف فيهم حرية التفكير الشخصي والعمل المستقل ، واصبح المصري على الأيام غريباً في اخلاقه ، لايرى الشرف الا ماجاء من طريق الحكومة ، ولا يسعد في رأيه الا من أسعدته الحكومة ، وعهدنا بالمدارس المصرية تخرج الالوف من الطلاب ، وما عهدنا انه انصرف منهم الى الاعمال الحرة الا من لم تكفِ شهاداتهم للاستخدام بمرتبات مقبولة ، والباقون وهم الصفوة توسد اليهم اعمال أصيبت بالاشباع والتضخم لكثرة ماينهال عليها من الطالبين ، فكأن المدارس في القطر المصري أنشئت لتخريج مستخدمين ، والراسب في فحوصها أو من لم يتمكن من اتمام دراسته لسبب من الاسباب تسوقه الحال الى انتحال مذهب من مذاهب المعاش ، يعمل فيه متكارهاً ويكون وسطاً او دون الوسط ، ولو نزع القائمون بالامر في مصر ايديهم من معاونة رعاياهم في كل شيء وتركوا الوطني والغريب يتنافسان برأسيهما في ميدان الأعمال ، لشهدت الدخيل يلقي بالأصيل جانباً فيتجلى للبصير آنئذ الفرق محسوساً بين تربية وتربية ٠

وليس بعجيب بعد هذا ان يصبح معظم ماتم من المشاريع الجيدة في مصر من صنع الحكومة قام بايدي رجالها ، وكلف اضعاف مايساوي لانه عمل حكومي ٠ ولو قدر ان تخلت حكومة مصر عن معاونة بعض الشركات الوطنية ، لأصابها فتور في حركتها ، ذلك لان السكان مااعتادوا ان يمشوا بدون دليل ، ولا غنية لهم عمن يهيمن عليهم من قريب او من بعيد ٠

وأصدق شاهد على هذا ان تتخلى الحكومة الجمعيتان اللتان قامتا احسن قيام بانشاء الجامعة القديمة وتأسيس مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية فأثبتتا عجزهما واتكالها

بعد ان أثبت المؤسسون الأول كفاءة عظيمة وفرح كل عاقل باستقلالهم المحمود.

وما أصدق ماقاله الاستاذ احمد فتحي زغلول باشا في مقدمة كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين : « ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة فهي التي نطالبها بحفظ حياتنا ، وخصب أرضنا ، وترويج تجارتنا ، وتحسين صناعتنا ، هي التي نطلب منها ان تربي الأبناء ، وتطعم الفقراء وترزق العجزة ، وتنفي اسباب البطالة وتحفظ الاخلاق ، وتلم شعث العائلات ، وتجمع اشتات القلوب ، هي التي نطالبها بتعويض مانقص من ارادتنا ، وتقويم ماأعوج من سيرنا وسيرتنا ، ورد هجمات المزاحمين عنا ، والسهر على مصالح كل واحد منا ، فاذا تأخرنا في عمل من تلك الاعمال باهمالنا ، رميناها بسوء الادارة واتهمناها بحب الأثرة ، والقينا عليها تبعة خمولنا كلها .

« لاريب اننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل ، فانما الحكومة وازع لايكلف الا مااقتضته طبيعته ، وشأن الحكومات في الأمم تأييد النظام ، وحفظ الامن وإقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضاً على مايضمن حرية التجارة ، ويشجع أهل الصناعات والحرف ، كما تقتضيه المصالح المشتركة ؛ وعلى قدر ماتسمح به الممكنات ، وبالجملة فالحكومة وازع عام لاواجب عليه الا الأمر العام ، مما يدخل تحته جميع الناس ، ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه ، وعلى الامة بعد ذلك ان تستفيد من هذا النظام ، وتنتهز فرصة الامن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها ، وتطلب الكمال في زراعتها وصناعتها وتجارتها ، وفي نشر المعارف واحياء العلوم ، وفي اداء الواجب والمحافظة على الحقوق . »

وبعد فقد نزع داء التوظف من كيان المصري صفات صالحة كان يشارك بها أرقى الأمم في حضارتها لو قيض له من يعالجه ، وما دام أصحاب الخدمة هنا من اكثر عمال الامم رزقاً ورفاهية وأقلهم تعباً وتبعة ، فالمتعلمون من اذكياء المصريين لن يكون لهم مأرب في غير الاستخدام ، ولو في نطاق ضيق لايعود عليهم بكبير فائدة . ذكر الاستاذ محمد على علوبه باشا في

كتابه مبادىء في السياسة المصرية انه اذا بحثت أمر كل وزارة ومصلحة هالك لأول نظرة ماعليه الادارة من كثرة الموظفين كثرة هائلة حتى أنك لتجد بعضهم يعترف لك اعترافاً صريحاً بان كثرة هؤلاء الموظفين عديمة الجدوى ، وأنها في أحايين كثيرة تعرقل العمل عرقلة مزرية ، واطالما لوحظ من بعض الموظفين انهم لايأتون الا عملاً تافهاً ، ويقتلون اوقات عملهم في قراءة الصحف وفي الحديث مع زملائهم او مع زائريهم مع استمرار الشكوى من عدم ترقيتهم او رفع علاواتهم . وبعد ان وصف المؤلف ذلك الجيش العاطل من الفراشين والسعاة والجنود على أبواب الدواوين وأقلامها وفي طرقاتها ومنافذها ممن لاعمل لهم الا تقديم القهوة والمرطبات وحمل بعض الأوراق من حجرة الى اخرى قال : : ولقد عمت الفوضى وساد التواكل والتكاسل من هذا النظام الذي يجب ان يزول اذ هو أثر من آثار الماضي يجب ان نتحرز من مساوئه ، ولا يمكن ان نصف مصر في وقتنا الحاضر إلا بانها بلد الموظفين وملجأ التوظف . اهـ

محمد كرد علي

ابو الهذيل العلاف

حياته وفلسفته

١ — تمهيد

كان من أثر اتصال العرب بالفرس والروم في العصر العباسي الأول أن انتشرت في الدولة الاسلامية ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكان هناك كتاب وشعراء وفلاسفة وعلماء يدعون الى هذه الثقافات ويحببونها الى الناس . وكان هناك ديانات ومذاهب مختلفة تحاول أن تثبت دعوتها ، حتى اضطر الخلفاء العباسيون الى التدخل في المسائل الدينية ، وحث العلماء على وضع الكتب في الرد على المجوس والدهرية . وعمل المتكلمون ، وعلى رأسهم المعتزلة ، على نشر الدعوة الدينية ، والذب عن حياض الاسلام ، عن طريق العقل ، فاستعانوا بالمنطق اليوناني وصاغوا مسائلهم في قوالبه ، وعرفوا طرق الجدل والمناظرة ، ووضعوا لها قوانين وقواعد تقيدوا بها . ولقد بلغ من قوة العلماء في ذلك العصر أن أنفذ واصل بن عطاء اصحابه الى الآفاق ، وبث دعوته في البلاد ، فأجابهم الى ذلك خلق كثير . وكانت مدينة البصرة عاصمة هذه الحركة الفكرية العظيمة ، يجتمع فيها واصل بن عطاء بعمرو بن عبيد ، وعثمان الطويل ، فينازعون الثنوية والدهرية في أمور التوحيد ، ويناظرون المجبّرة في الجبر والاختيار ، والثواب والعقاب ، ويردون على المشبهة في صفات الله والتجسيم . وشجع الخلفاء العباسيون هذه الحركة الفكرية للرد على الملحدين فاختار المهدي رجلاً وكل اليه أمرهم سماه صاحب الزنادقة ، وأنفذ الهادي وصية أبيه المهدي فاشتد في طلبهم والتنكيل بهم ، وسلك هارون الرشيد سبيل من قبله من الخلفاء في تعقبهم ، وأمر المأمون بقتل من حمل اليه من زنادقة البصرة .

٢ — نشأة أبي الهذيل : مولده ونسبه وحياته

ففي هذا العصر المفعم بالحياة الدينية والفكرية نشأ أبو الهذيل العلاف وهو أبو الهذيل محمد بن عبد الله بن مكحول العبدي . ولد سنة خمس وثلاثين ومائة في مدينة البصرة في خلافة السفاح . كان مولى لعبد القيس . ولقب بالعلاف لأن داره كانت بالعلافين . ثم أخذ العلم عن عثمان الطويل وطبقته . وعثمان الطويل أخذه عن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وقيل ان ابا الهذيل تزوج اخت عمرو بن عبيد . فدفعت اليه قمطرين من الكتب ، فأخذ عنها كثيراً من كلامه حتى بلغ فيه غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد . ويظهر أن نبوغ ابي الهذيل ، لا يرجع الى ما قبسه من هذه الكتب ، ولا الى ما أخذه عن أستاذه عثمان الطويل فحسب ، بل يعود الى استعداده الفطري وذكائه الحاد . فقد اتفقت الروايات على ان نبوغه كان مبكراً ، وانه كان له أقل من خمس عشرة سنة أول ما تكلم قال ابو الهذيل :

« كنت أختلف الى عثمان الطويل ، صاحب واصل بن عطاء ، فبلغني أن رجلاً يهودياً قدم البصرة ، وقد قطع عامة المتكلمين فيها ، فقلت لعمي ، يا عم ، امض بي الى هذا اليهودي أكلمه ، فقال لي : يا بني ، هذا الرجل قد غلب جماعة متكلمي أهل البصرة ، فمن أخذك أن تكلم من لا طاقة لك بكلامه ؟ فقلت له : لا بد من أن تمضي بي اليه . وما عليك مني غلبني أو غلبته ، فأخذ بيدي ، ودخلنا على اليهودي فوجدته يقرر الناس الذين يكلمونه على نبوة موسى ، ثم يجحدهم نبوة نبينا . فيقول : نحن على ما اتفقنا عليه من صحة نبوة موسى الى ان نتفق على غيره فنقر به . قال فدخلت عليه ، فقلت له : أسألك او تسألني ، فقال لي يا بني ، أوما ترى ما أفعله بمشايخك ؛ فقلت له دع عنك هذا واختر ، اما أن تسألني ، أو اسألك . قال بل أسألك . خبرني . أليس موسى نبياً من أنبياء الله قد صحت نبوته ، وثبت دليله . تقر بهذا أو تجحده فتخالف صاحبك . فقلت له : ان الذي سألتني عنه من أمر موسى هو عندي على أمرين . أحدهما اني أقر بنبوة موسى الذي

أخبر بصحة نبوة نبينا ، وامر باتباعه ، وبشر به وبنبوته . فان كنت عن هذا تسألني فأنا مقر بنبوته . وان كان موسى الذي تسألني عنه لا يقر بنبوة نبينا محمد (ﷺ) ولم يأمر باتباعه ولا بشر به ، فلست أعرفه ولا أقر بنبوته ، بل هو عندي شيطان يحرق . فتحير لما ورد عليه ما قلته له . وقال لي : فما تقول في التوراة ، قلت امر التوراة أيضاً على وجهين ، ان كانت التوراة التي أنزلت على موسى النبي الذي أقر بنبوة نبي محمد فهي التوراة الحق ، وان كانت أنزلت على الذي تدعيه فهي باطل غير حق ، وانا غير مصدق بها . فقال لي احتاج الى ان اقول لك شيئاً بيني وبينك فظننت انه يقول شيئاً من الخير فتقدمت اليه ، فسارني فقال امك كذا وكذا ، وام من علمك . لا يكنى . وقدر اني اثب به فيقول وثبوا بي وشغبوا علي فأقبلت على من كان بالمجلس فقلت اعزكم الله . اليس قد وقفتم على مسألته اياي وعلى جوابي قالوا لي نعم . فقلت أليس عليه واجب ان يرد علي جوابي . فقالوا نعم . قلت لهم فانه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني . وانما قدر ان اثب به فيدعي انا واثبناه وشغبنا عليه . وقد عرفتكم شأنه بعد انقطاعه . فأخذته الأيدي بالنعال . فخرج هارباً من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه »[1] .

لم تنقض حياة ابي الهذيل كلها في البصرة ، بل رحل منها الى مكة وبغداد وسر من رأى . فقد جاء في أحد كتب ابي الهذيل ، انه لقي هشام بن الحكم في مكة عند جبل ابي قبيس . وذكر الخطيب البغدادي ، ان أبا الهذيل قدم بغداد سنة ثلاث ومائتين وقد نيف على المائة . وذكر المسعودي ان ابا الهذيل اتصل هناك بالمأمون . وكان المأمون في اول امره ، لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره ،

---

(١) الحافظ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد او مدينة السلام . المجلد الثالث ص ٣٦٦ - ٣٧٠ راجع ايضاً . امالي السيد المرتضى : ص - ١٢٤ . نكت الهميان في نكت العميان ، لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، مصر . المطبعة الجمالية سنة ١٩١١ ص - ٢٧٧ - ٢٧٩ . عيون التواريخ . لمحمد بن شاكر الكتبي . الجزء السادس ، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٧ ص ١٢٠ .

يستعمل النظر في احكام النجوم وقضائها ، وينقاد الى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان . فلما كان من الفضل بن السهل ذي الرياستين ما اشتهر ، وقدم المأمون العراق انصرف عن ذلك كله ، واظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيراً من الجدليين والمناظرين كأبي الهذيل والنظام . والزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء . وكان يشاركهم في مناظراتهم ، ويردهم الى جادة الصواب عند خروجهم منها . ويروى ان المأمون قال لحاجبه يوماً : من في الباب من اصحاب الكلام . فخرج وعاد اليه فقال بالباب ابو الهذيل العلاف وهو معتزلي ، وعبد الله بن إباض الخارجي . وهشام بن الكلبي الرافضي ، فقال المأمون : ما بقي من اعلام جهنم احد الا وقد حضر .

واتصل ابو الهذيل في بغداد بيحيى بن خالد البرمكي وسهل بن هارون صاحب بيت الحكمة . فكان سهل بن هارون يظهر له الصداقة ويكن له العداوة . فقد استشفع ابو الهذيل به مرة على رجل في حاجة له فكتب سهل الى الرجل :

ان الضمير اذا سألتك حاجة لأبي الهذيل خلاف ما ابدي
فاذا اتاك لحاجة فامدد له حبل الرجاء بمخلف الوعد
والن له كنفاً ليحسن ظنه من غير منفعة ولا رفد
حتى اذا طالت شقاوة جده ورجا الغنى فأجبه بالرد
وان استطعت له المضرة فاجتهد فيما يضر بأبلغ الجهد

واتصل ابو الهذيل في بغداد ايضاً بالحسن بن سهل وناظر بحضرته اصحاب النجوم ، دخل يوماً على الحسن بن سهل وعنده فتى قد رفع الحسن بن سهل مجلسه ، فقال ابو الهذيل من هذا الفتى الذي قد رفعه الأمير ، لنوفيه بمعرفته حقه . قال رجل من أهل النجوم ، قال من اهل صناعة الحساب ام الاحكام . قال الأحكام . قال ذلك عمل باطل . أفنسأله قال : سل . فأخذ ابو الهذيل تفاحة من بين يديه . وقال آكل هذه التفاحة أم لا . قال تأكلها . فوضعها ابوالهذيل . وقال : لست آكلها . قال فتعيدها الي يدك ، وأعيد النظر . فوضعها وأخذ غيرها

فقال له الحسن : لم اخذت غيرها قال لئلا يقول لي لا تأكلها ، فآكلها خلافاً عليه فيقول : قد اصبت في المسألة الأولى .

ثم ان ابا الهذيل انتقل من بغداد الى سر من رأى ونزل في غرفة بسيطة الى ان يطلب داراً تصلح له : قال سليمان الرقي فمررت به فقلت له يا أبا الهذيل اتنزل في هذا المنزل فأنشدني :

يقولون زين المرء يامي رحله   الا ان زين الرحل يامي راكبه

وفي سر من رأى مات ابو الهذيل . واختلفوا في تاريخ موته . فزعم الخطيب البغدادي وابو المحاسن انه مات سنة ست وعشرين ومائتين في أواخر أيام المعتصم . قال المسعودي مات ابو الهذيل سنة سبع وعشرين ومائتين . وقال صاحب كتاب المصابيح لما مات ابو الهذيل بسر من رأى جلس الواثق في مجلس التعزية . وهذا يدل انه مات في ايام الواثق . وقال آخرون انه ادرك خلافة المتوكل ومات سنة خمس وثلاثين ومائتين . ونحن نميل الى ترجيح هذا القول الأخير استناداً الى سائر اخباره .

هذه لمحة قصيرة من حياة ابي الهذيل العلاف جمعتها مما تبعثر من اخباره في كتب التراجم والتاريخ والفلسفة . وفي كتب الأدب اخبار كثيرة عن ابي الهذيل تصور لنا اخلاقه خير تصوير وتبين لنا منزلته احسن تبيين .

٣ — أخلاق أبي الهذيل

لم تكن اخلاق ابي الهذيل مما يورث الحمد والثناء دائماً . فقد قال الجاحظ ان ابا الهذيل كان ابخل الناس . مثال ذلك انه اهدى الى مويس دجاجة ، وكانت دجاجته التي أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه وبحسن خلقه ، اظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها . فقال وكيف رأيت يا ابا عمران تلك الدجاجة . قال كانت عجباً من العجب ، فيقول وتدري ما جنسها ، وتدري ما سنها . فان الدجاجة انما تطيب بالجنس والسن . وتدري بأي شيء كنا نسمنها ، فلا يزال في هذا ، والآخر يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه

ابو الهذيل . فان ذكروا دجاجة قال : اين كانت يا ابا عمران من تلك الدجاجة . وان ذكروا بطة او جزوراً او بقرة . قال فأين كانت هذه الجزور في الجزر ، من تلك الدجاجة في الدجاج . وان ذكروا عذوبة الشحم قال عذوبة الشحم في البقر والبط وبطون السمك والدجاج . وان ذكروا ميلاد شيء او قدوم انسان ، قال ذلك بعد ان اهديتها لك بسنة . وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة الا يوم . فكانت مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً في كل شيء [١] .

ولعل البخل هو الصفة الجامعة لسائر صفات ابي الهذيل القبيحة ، لأن حرصه الشديد قد صيره عند بعضهم كذاباً . ولا بد للبخيل من ان ينافق ويصانع في التكسب والانتفاع وان يدعي ما ليس فيه . قال الجاحظ :

« قال ابو الهذيل لمحمد بن الجهم وانا عنده يا ابا جعفر : اني رجل مخرق الكف لا اليق درهماً . وبدي هذه صناع في الكسب ، ولكنها في الانفاق خرقاء . كم من مائة الف درهم قسمتها على الاخوان في مجلس ، وابو عثمان يعلم ذلك . أسألك بالله يا ابا عثمان ، هل تعلم ذلك ؟ قال يا ابا الهذيل ما اشك فيما تقول . قال فلم يرض ان حضرت حتى استشهدني ، ولم يرض باستشهادي حتى استحلفني [٢] » .

ولم يكن بخله الشديد الاصفة متممة لطمعه ، وحبه للظهور ، واهتمامه برأي الناس فيه . حتى قال بشر بن المعتمر : « لان يكون ابو الهذيل لا يعلم وهو عند الناس يعلم أحب اليه من ان يعلم ، وهو عند الناس لا يعلم : ولان يكون من السفلة وهو عند الناس من العلية ، احب اليه من ان يكون من العلية ، وهو عند الناس من السفلة . ولان يكون نبيل المنظر سخيف المخبر ، احب اليه من ان يكون نبيل المخبر ، سخيف المنظر . وهو بالنفاق اشد عجباً منه بالاخلاص . ولباطل مقول احب اليه من حق مدفوع » [٣] .

ويظهر ان الجاحظ كان شديداً على ابي الهذيل - فهو الذي وصفه بالبخل الشديد ،

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٦٣ — ٦٤ (٢) الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص — ٦٤

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جزء ٢١ ص ١٠٦ في الهامش .

وقال عنه مع ذلك انه كان اسلم الناس صدراً ، واوسعهم خلقاً واسهلهم سهولة ٠
ولعل هذه الصفات كانت تشفع لأبي الهذيل في شيء من بخله ٠ فقد رأيناه يصف الدجاجة التي اهداها الى مويس ويضحك الناس من كلامه ولا يعرف ابوالهذيل معنى ضحكهم وسخريتهم لسلامة صدره وسهولة اخلاقه ٠ وقد رأيناه ينزل بسر من رأى في غرفة حقيرة ويتعجب اصحابه من ذلك فيقول لهم ان ظواهر المرء لا تدل على قيمته الحقيقية ٠

ولعل ميله الى الشهرة وطموحه واهتمامه برأي الناس فيه هو الذي دفعه الى مناظرة اليهودي في البصرة وهو لا يزال في الخامسة عشرة من سنه ٠ وحب الظهور اذا اجتمع مع البخل في رجل واحد ، قد يدفعه في بعض الأوقات الى التظاهر بالتقشف والكرم في دائرة ضيقة ٠ وقد يكون التظاهر بالكرم واسطة من وسائط الاصلاح والاقتصاد ، او وسيلة من وسائل دوام النعمة والثروة ٠ حتى لقد ذكر صاحب المنية والأمل ان ابا الهذيل كان يأخذ من السلطان ستين الف درهم في السنة ويفرقها في بعض الأحيان على اصحابه ٠

ويبدو لنا من قراءة اخبار ابي الهذيل ان شخصيته كانت عجيبة ، لا بل متناقضة ، فقد كان بخيلاً ، سليم الصدر ، سهل الأخلاق ، محباً للظهور ، متقشفاً ، متظاهراً بالكرم ، موضعاً للاعجاب والسخرية معاً ٠

٤ — كتب أبي الهذيل

وليست هذه الصفات بقادحة في علم ابي الهذيل وقيمته الفكرية والفلسفية ، فقد كان شيخ المتكلمين في زمانه ٠ ولم يتفق لأحد من شيوخ المعتزلة ما اتفق له من قوة الحجة ، ولطيف الكلام ، وقطع المخالفين له في المناظرة ٠ فقد الف ستين كتاباً في الرد على المخالفين في رقيق الكلام وجليله ٠ ولم يبق من هذه الكتب بين أيدينا الا مخطوط واحد محفوظ في المتحف البريطاني تحت رقم ١٢٣٨ عنوانه هذه مناظرة ابي الهذيل لمجنون الدير ٠ ومجنون الدير هذا هو شخصية وهمية تصورها ابو الهذيل للبحث في إمامة علي ٠ أما اشهر كتبه الأخرى فهي :

١ — كتاب متشابه القرآن ذكره ابن النديم في الفهرس

٢ — كتاب ميلاس ، وكان ميلاس هذا رجلاً مجوسياً أسلم على يد ابي الهذيل . وكان سبب اسلامه انه جمع بين ابي الهذيل وجماعة من الثنوية فقطعهم ابو الهذيل فأسلم ميلاس عند ذلك .

٣ — كتاب القوالب في الرد على الدهرية

٤ — كتاب الرد على النظام

٥ — كتاب الحجج

٦ — كتاب الاعراض والانسان والجزء الذي لا يتجزأ .

وغير هذه الكتب كثير لم يبق الآن منها شيء . ولولا ما حفظ من فلسفة ابي الهذيل في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والفرق بين الفرق للبغدادي ، والمواقف للايجي ، ومقالات الاسلاميين للأشعري ، والانتصار للخياط لكنا اليوم لا نعرف شيئاً عن فلسفة هذا الرجل العظيم .

٥ — ميزة أبي الهذيل

لم تقتصر حياة هذا الفيلسوف الفكرية على علم الكلام والجدل ، بل اشتملت ايضاً على علوم اخرى كعلم الحديث ، وعلم الأدب . فقد روى الحديث عن سليمان ابن مريم وروى عنه محمد الكاتب وابو يعقوب الشحام وابو العيناء وغيرهم . وانتقده أهل الحديث لخبث قوله وكذبه ومفارقته اجماع المسلمين . حتى قال الامام ابن قتيبة ان أبا الهذيل كان كذاباً أفاكاً . وشارك ابو الهذيل أيضاً في الأدب فحفظ كثيراً من أخبار العرب وأشعارهم . قال ابو حيان في المقابسات :

دخل ابو الهذيل مرة على الواثق . فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سباك من هاشم سبيل ليس الى وصله سبيل

للحسن في وجهه هلال لأعين الخلق لا يزول

وطرة ما يزال فيها لنور بدر الدجى مقيل

فان يقف فالعيون نصب وان تولى فهن حول

فقال ابو الهذيل يا أمير المؤمنين . هذا الرجل من أهل البصرة يعرف بأبي حيان الدارمي وكان يقول بامامة المفضول . ومن كلمة يقول فيها :

أفضله والله قدمه على صحابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة والله مني لغيره ولكنه أولاهم بالتقدم

وقال النظام : ما أشفقت على ابي الهذيل قط في استشهاد شعر الا يوم قال له الملقب ببرغوث اسألك عن مسألة فرفع ابو الهذيل نفسه عن مكانته فقال برغوث :

وما بقيا علي تركتماني ولكن خفتما صرد النبال

ولم اعرف في نقيضه بيتاً يتمثل به . فبرز ابو الهذيل وقال لا بل كما قال الشاعر :

وارفع نفسي عن بجيلة انني اذل بها عند الكلام وتشرف

وكان القوم يجلونه ويعظمونه لسعة علمه وكثرة حفظه وسرعة خاطره . قال ثمامة وصفت اباالهذيل للمأمون فلما دخل عليه جعل المأمون يقول لي يا ابا معن وابو الهذيل يقول لي يا ثمامة . فكدت اتقد غيظاً . فلما احتفل المجلس استشهد ابو الهذيل في عرض كلامه بسبع مائة بيت فقلت له ان شئت فكنني ، وان شئت فسمني . وذكر ابن النديم في ترجمة ثمامة بن اشرس انه بلغ المأمون ان ثمامة لا يقوم لطاهر بن الحسين ويقوم لأبي الهذيل ويأخذ ركابه حتى ينزل فسأله عن ذلك فقال ابو الهذيل أستاذي منذ ثلاثين سنة .

وفي وفيات الأعيان كلام لأبي الهذيل في العشق يدل على فصاحته وبلاغته . قال اجتمع عند يحيى بن خالد البرمكي جماعة من أرباب الكلام فسألهم عن حقيقة العشق فتكلم كل واحد بشيء وكان ابو الهذيل في جملتهم فقال : « أيها الوزير ، العشق يختم على النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتعه في الأجسام ، ومشرعه في الأكباد ، وصاحبه متصرف الظنون ، متفنن الأوهام ، لا يصفو له مرجو ، ولا يسلم له مدعو ، تسرع اليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، ونقعة من حياض الثكل ، غير انه من اريحية تكون في الطبع ، وطلاوة توجد في الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغي الى داعية المنع ، ولا يصيخ لنازع العذل » .

ومعرفة ابي الهذيل بجيد الكلام ، جملت المبرد يقول فيه : ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ ، ولئن كان الجاحظ أقدر على فنون الكتابة من ابي الهذيل لقد كان ابو الهذيل أحسن مناظرة منه . وقال الخياط في كتاب الانتصار ، كان ابو الهذيل نسيج وحده ، وواحد دهره ، في البيان ، ومعرفة جيد الكلام . وجميع المتكلمين الذين عاصروا ابا الهذيل كانوا يقرون له بالتقدم عليهم ، في حسن الجدل وقوة الحجة ، حتى لقد قال ابن النديم كان ابو الهذيل شيخ البصريين ومن اكبر علمائهم ، وقال ابن خلكان كان ابو الهذيل حسن الجدال ، قوي الحجة ، كثير الاستعمال للأدلة والالزامات . وذكروا ان النظام كان قد نظر في شيء من كتب الفلاسفة فلما ورد البصرة ، كان يرى انه قد اورد من لطيف الكلام ، ما لم يسبق علمه الى ابي الهذيل العلاف ، قال فناظرت ابا الهذيل في ذلك ، فخيل لي انه لم يكن متشاغلاً قط إلا به ، لتصرفه فيه ، وحذقه في المناظرة فيه . وكثيراً ما كان ابو الهذيل يناظر النظام ويقطعه ، ناظر النظامُ ابا الهذيل مرة في الجزء الذي لا يتجزأ فألزمه ابو الهذيل مسألة الذرة والنعل ، وهو أول من استنبطه فتحير النظام في ذلك فلما جنّ الليلُ نظر اليه ابو الهذيل ، واذا النظام قائم ، ورجله في الماء يتفكر ، فقال يا ابراهيم هذا حال من يناطح الكباش .

وكان ابو الهذيل يقطع خصمه بأقل كلام ، حكي انه لقي صالح بن عبد القدوس ، وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه . فقال له أبو الهذيل لا أعرف لجزعك عليه وجهاً ، إذ كان الانسان عندك كالزرع ، قال صالح : يا أبا الهذيل انما اجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال له وما هذا الكتاب يا صالح ، قال هو كتاب ، قد وضعته ، من قرأه ، يشك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، ويشك فيما لم يكن ، حتى يتوهم أنه قد كان . فقال له ابو الهذيل فشك أنت ، في موت ابنك ، واعمل على انه لم يمت ، وان كان قد مات ، وشكّ أيضاً في قراءته كتاب الشكوك ، وان كان لم يقرأه .

وقال ابو الهذيل قلت لمجوسي ما تقول في النار قال بنت الله ، قلت فالبقر

قال ملائكة الله ، قصّ اجنحتها وحطّها الى الأرض ، يُحرث عليها ، فقلت فالماء قال نور الله ، قلت فما الجوع والعطش قال فقر الشيطان وفاقته ، قلت من يحمل الأرض قال بهمن الملك قلت فما في الدنيا شرّ من المجوس اخذوا ملائكة الله ، فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ، ثم شَوَوْها بينت الله ، ثم دفعوها الى فقر الشيطان وفاقته ثم سلخوها على رأس بهمن أعز ملائكة الله ، فانقطع المجوسي وخجل .

وكان أقدر على اقناع العلماء منه على اقناع العامة . قيل له مرة إنك لتناظر النظام وتدور بينكما نوبات . واحسن احوالنا اذا حضرنا ان ننصرف شاكين في القاطع منكما والمنقطع ، ونراك مع هذا يناظرك زنجويه الحمالُ فيقطعك في ساعة ، فقال يا قوم ان النظام معي على جادة واحدة ، لا ينحرف أحدنا عنها الا بقدْر ما يراه صاحبه ، فيذكره انحرافه ، ويحمله على سَننه ، فأمرنا قريب ، وليس هكذا زنجويه الحمال ، فانه يبتدي معي بشيء ثم يَطفِرُ الى شيء آخر بلا واصلة ولا فاصلة ، وابقى ، فيحكم علي بالانقطاع ، وذاك لعجزي عن رده الى سَنن الطريق الذي فارقني فيه آنفاً .

وفي هذا القول اشارة الى شروط الجدل ، وضرورة التقيد بموضوع البحث ، وتحديد المعاني في السؤال والجواب ، والاقناع والبرهان . والجدل هو الطريقة التى سلكها ابو الهذيل ، واصحابه من المعتزلة في عرض فلسفتهم ، والدفاع عن آرائهم ، فتولد من هذه المناظرات فلسفة عامة مشتملة على نظريات مختلفة ؛ في حقيقة الاله والكون والانسان .

(يتبع) جميل صليبا

أقرب الموارد

اطلعت بنظرة مجملة على كتاب أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد لما رأيته أكثر الكتب اللغوية الحديثة تداولاً بين الأيدي لسهولة مأخذه وحسن ترتيبه .

نظرت اليه هذه النظرة في بابي الهمزة والباء منه فرأيت فيه بعض مخالفات لما عرفته من كتب الأئمة السالفين الأثبات فأحببت عرضها على النحارير ليمحصوها فاذا صحَّ نظري فيها تجنَّبها الآخذون عنه .

١ — في مادة (اب ب) الأَبُّ الكلأُ الذي تعتلفه الماشية ج الأَوُبُّ

هذا جمع غريب ولعله جمعه على أفعُل ثم اعلّ وابدل ولكنه لم ينص عليه صاحب التاج ولا صاحب اللسان مع جمعها لكل شاردة ولا ذكره صاحب المختار ولا الأساس .

٢ — في (اب و) ابا ... آباوَة

هكذا أوردها بالفتح ونص القاموس إِباوةً بالكسر .

٣ — في (اذن) المؤذِنة ... طائر في القاموس بفتح الذال .

٤ — في (ارق) آرِق ... ذهب نومه بالليل فهو آرِق وآرْق وأرُق الأخير لمن عادته الأَرَق .

وفي اللسان فهو ارِق وآرِق وآرُق وأرُق ، وضع أرْق موضع آرُق كندُس كما وزنها في مستدرك التاج وأما ارْقٌ بالتسكين فلم أرها في مالدي من كتب الأثبات

٥ — في (ا ز ي) آزِىَ ل يأزِى آزْيا أتاه من وجهه ليختله .

في اللسان آزَيت لفلان آزِي ازْياً اذا اتيتَه من وجه مأمنه لتختِلَه وهذه عبارة الليث فهي إذاً من باب رمى ثم لِمَ حذف مأمنه والمراد لا يتم الا بها .

٦ — في (اش ر) أشر الخشبة بالمنشار . ض . أشراً : نشرها اي من باب ضرب

عبارة القاموس اشر الخشبَ بالمنشار : شقه واذا أطلق صاحب القاموس الفعل الثلاثي كان من باب نصر ونص المصباح على انه من باب نصر وكذلك المختار ولم يقل احد فيما أعلم انه من باب ضرب ٠

٧ — (ا ش ف) الأُشَّفُ : صمغ نبات

صوابه الأُشَّق بالقاف قال في التاج وهو المعروف في مصر بقناوشق ٠

٨ — (ا م ر) ٠٠ وآمر آخر أيام العجوز

آمر هو السادس منها ٠ وآخرها مؤتمر قال في اللسان وكأن الأول منهما يأمر الناس بالحذر والآخر يشاورهم في الظعن ٠ ا هـ ٠

واذا احرزنا الترتيب من شعر ابي شبل الاعرابي كان آمرٌ رابعًا فليتأمل ولو قال صاحب اقرب الموارد كما قال صاحب القاموس وآمر ومؤتمر آخر أيام العجوز كان أسلم

٩ — (ا ن ح) الأَنِحُ ٠٠٠ المتنحنح بخلاً اذا سئل

هكذ ذكرها على وزن فَرِح وصوابه آنِح على وزن راكع كما وزنه صاحب القاموس

١٠ — (ا ن ف) انفه ٠ ض ٠ ل ٠ أنفاً ضرب انفه اي من باب ضرب وعلم صريح القاموس وشرحه انه من حد ضرب ونصر

١١ — (ا ن ن) أنّ المريض ٠٠٠ وأنانا

هكذاوالصواب أُنانا بالضم كما هومنصوص عليه وهومن الاصوات كالصراخ والجؤار والنعاق

١٢ — البانورنج [كسر النون] والصواب فتحها

١٣ — (ب ب ر) البَبْرُ وزان قلب وكبد الأسد الهندي دخيل

صوابه الببر بباءين ٠ وهذا غلط مطبعي اما انه بوزان كبد فلم أره لغيره وقد جاءت فيه لغة ثانية بكسر فسكون كما في الألفاظ الفارسية المعرّبة ٠

١٤ (ب ت ر) ٠٠٠ والبَتار ٠٠٠ السيف القاطع

هكذا بوزن سحاب وانما هو البُتار بضم ففتح فان فتحت الباء شددت التاء فقلت البَتّار ككتّان ٠

١٥ — (بَ حْ ث) البحث لعب بالبُحاثة أي التراب

تبع في هذا صاحب القاموس وصوّبه صاحب التاج بالبحث .

١٦ — [ب ذ ء] • بذأت الرجل بَذْءاً رأيت منه حالاً كرهتها (ض) جعلها من باب ضرب ونص التاج والقاموس أنه من باب منع والقاعدة فيما كان عينه أو لامه حرف حلق ان يكون منه عند عدم النص على خلافه ولا أظن ان هناك نصاً والا لذكره صاحب التاج

١٧ — [ب ذ ق] البأذق بفتح الذال

الصواب ترك الهمز والذال تفتح وتكسر كما في القاموس

١٨ — [ب ذ م] فلان ذو بَذْم أي له رأي وحزم قال :

[كريم عروق النبعتين مظفر ويغضب مما منه ذو البَذم يغضب]

الصواب في معنى الرأي والحزم البُذم بالضم قال في اللسان قال الأصمعي اذا لم يكن للرجل رأي قيل ماله بُذْم • واما البَذْم فهو مصدر البذيم وهو العاقلُ الغَضِبِ من الرجال اي انه يعلم ما يأتيه عند الغضب كذا حكاه أهل اللغة وقيل يعلم ما يُغضَب له قال الشاعر :

كريم عروق النبعتين مطَهَّرٌ ويغضب مما منه ذو البَذْم يغضب اه

وجاء في الشاهد مظفر مكان مطهّر • وأنشد صاحب اللسان للمرّار :

قد طال ما عشت بغير بُذْم

وفسره صاحب التاج بغير مروءة وقد بَذُم بذامة ١٠ه •

١٩ — [ب ر د] • برْد الجراد والجندب جناحاه كقوله :

اذا تجاوب من بَرْديه ترنيم

هكذا ضبط بالشكل بَرْديه بفتح الباء والصواب ضمها والبيت لذي الرمة •

٢٠ — [ب ر ص] برص سامّ ابرص ج سوامّ ابرص وان شئت قلت بِرْصة هكذا أورد برْصة باسكان الراء والصواب بِرَصة كعِنَبة وأورد سوامّ ابرص بفتح الميم المشددة على نحو فتحها في المفرد وقد اوردها صاحب اللسان بضمها أكثر من مرة •

٢١ — [ب ز ل] امرأة بَزْلآء الرأي : جيِّدته

صحة العبارة ان يقول امرأة ذات بَزْلاء اي جيدة الرأي لأن بَزْلاء هنا اسم لا صفة وفي اللسان البَزْلاء الرأى الجيد وانه لذو بَزْلآء اي رأي جيد وعقل وأنشد للراعي :

من أمر ذي بَدَوات لا تزال له بَزْلاء يعيا بها الجثّامة اللُبَدُ

٢٢ — [ب ش ك] ابتشك سلاه : انقطع

وفي القاموس انبشك سلكه : انقطع والأمر في ذلك سهل

٢٣ — بَطَل في حديثه بطالة

جعله من باب نصر كما هو سياق صاحب القاموس ولكن صاحب التاج قال والصواب انه من حدّ علم كما في الجمهرة .

٢٤ — [ب ع د] البَعِد : البعيد الهالك يستوي فيه الواحد والجمع يقال ما أنت منا بِبَعِد وما أنتم منا بِبَعِد .

هكذا جاء يبعد على وزان حَذِر والصواب بِبَعَد بفتح العين وهو الذي يستوي الواحد والجمع لانه جاء على صيغة المصدر وفي اللسان وغيره ما أنت منا بِبَعَدٍ وما أنتم منا بِبَعَدٍ أي بعيد .

٢٥ — [ب ع ر] بَعِر الجمل بَعَراً الق بعره

صريح المختار والقاموس انه كمنع وهو ظاهر اللسان ولم أجد من نص على أنه من باب فرح . وإنما بَعِر الجمل بَعَراً اذا صار بعيراً .

٢٦ — [ب ع ر] البَعْرُ والبَعَرُ : رجيع ذوات الخف والظلف

كان عليه ان يقول الا البقر لأن رجيعَه ليس ببعر وقد استثناه الأئمة .

٢٧ — [ب ع ص] البَعْصُوص والبَعَصوص

هكذا جاء به مفتوح الباء وصوابه ضمها اذا اسكنت العين .

٢٨ — [ب ق ع] الأبقع الغراب ج بِقعان

هكذا جاء بها بكسر الباء والصواب ضمها كما نصوا عليه وفُعلان يكاد يطرد فيما كان منه وصفاً كأحمر وحُمران واسود وسودان .

٢٩ [ب ق ل] ارض بقّالة : كثيرة البقل

تبع صاحب القاموس بالتشديد وصوّب صاحب التاج انه كسَحابة

٣٠ — ب ق ى ٠٠ وبقى ض بقياً : دام وثبت

أي انه كضرب [لغة فيه] وليس كذلك وانما اللغة الثانية بَقى يَبقى وهي لغة طيءٌ وقد وقع بهذا الوهم الشيخ أبو عبد الله الفامي المتوفى سنة ١١١٠ هـ وردّه صاحب التاج بأنه لا قائل به ٠

٣١ — [ب ك ء] در عينيَ قل دمعها فهي بكيءٌ وبكيئة بالهمز والتشديد

التشديد لا يكون مع الهمز وانما يكون بدونه ففي عبارته تسامح ٠

٣٢ — [ب ل ت] البَلِيت : الفصيح

هكذ وزان فصيح والمعروف عند النحارير البِلّيت كسِكّيت ٠

٣٣ — [ب ل ل] بَلال من اعلامهم ٠

هكذا ضبطه بالفتح والصواب بالكسر ككتاب كما هو صريح القاموس

٣٤ — [ب هـ ر] بُهراً له أي تعساً

هكذا ضبطه بالضم والصواب الفتح كما في لسان العرب ونصه « وبَهراً له أي تعساً وغلبه » قال ابن ميّادة :

تفاقد قومي إذ يبيعون مهجتي   بجارية بَهراً لهم بَعدَها بَهرا

وقال عمر بن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبهـا قلت بَهراً   عدد الرمل والحصى والتراب

هكذا كلها جاءت بالفتح ٠

٣٥ — [ب هـ ز] هم أبناء بَهزَة أي أولاد عَلَبة

صوابه أبناء عَلّة يقول الزمخشري وهم ابناء بَهزَة أي اولاد عَلّة الواحد ابن بَهزَة ا هـ ٠ وهم الأخوة لأمهات شتى من أب واحد ٠

٣٦ — [ب هـ ز] تبهزت أشياء : عملتها

صوابه علمتها من العلم لا من العمل ونقل الصاغاني «ولو علمت ان الظلم ينمي لتبهّزت اشياء كثيرة» اي علمتها .

٣٧ — [ب و ق] البوْقة بالفتح دفعة من المطر شديدة أو منكرة يقال أصابتنا بَوقة ج بُوَق

هكذا ضبط البَوقة بالفتح وصوابه البُوقة بالضم وهي الدُفعة من المطر كما في الصحاح زاد غيره شديدة او منكرة ج بُوَق كصُرَد كذا جاء في التاج وعبارة صاحب اقرب الموارد هي بعينها هذه العبارة فلماذا نص عليها بالفتح والمنصوص عليها هنا الضم وفي اللسان والبَوْق والبُوق والبُوقة الدُفعة المنكرة من المطر وقد انباقت .

٣٨ — [ب ي ض] بياض الأظافر : أُصولها

في مستدرك التاج وبياض الكبد والقلب والظفر ما احاط بها وقد فسرها بأصولها فحرّفها أو انه اراد ان يقول ما حولها فحرفها الناسخ .

تعقيب

أنا معجب بجهد المؤلف وسهره لتجويد تأليفه ولا أواخذه بما رأيته من أغلاط لأنه لا يسلم من أمثالها كثير من النحارير والعصمة لله تعالى .

وإنما الذي أؤاخذه عليه انه لا يراعي الحرمة في سرده الشاهد من القرآن والحديث وربما غير لفظ الحديث الذي يستشهد به . مثال ذلك يقول في مادة ث ق ل « ومنه اني تارك فيكم القرآن وعترتي » مع ان نص الحديث المستشهد به « اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » ويقول في اللسان كما في النهاية جعلها ثقلين اعظاماً لقدرهما وتفخيماً لها فحذف الثقلين وغيّر كتاب الله . وما هو الا ناقل وليس ما استشهد به من كلامه ليكون اعترافاً منه او حجة عليه ولو كان من كلامه لم يصح له الاستشهاد به وليس هو نص الحديث ليصح الاستشهاد به وانما الشاهد لا يغيّر ولا يبدل

وجاء فيه في مادة [ب ق ع] « ونادى موسى ربه في البقعة المباركة » وانما

الآية «فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى اني الله رب العالمين» .

وجاء في مادة [ا د ب] ان هذا الكتاب مأدبة الله في الأرض . ونص الحديث المستشهد به كما في النهاية «وفي حديث ابن مسعود ان هذا القرآن مأدبة الله في الأرض» . فجاء بالكتاب مكانه ليكون أعم ولكنه غير الشاهد . وتمام الحديث فتعلموا من مأدبته .

وجاء في مادة [ب ق ى] ولا تأتي الباقية مصدراً خلافاً لمن استظهر على ذلك بهذا الكلام «فهل ترى لهم من باقية» فقوله بهذا الكلام فيه من الجفاء وقلة الحرمة ما لا يليق بأمثال المؤلف .

على أن دعواه بأنها لا تأتي مصدراً جاءت بلا دليل وفي المصباح بقي الشيء يبقى من باب تعب بقاء وباقية دام وثبت وقول صاحب القاموس انها نزلت منزلة المصدر لا يستلزم انها لا تتأتى مصدراً كما جزم به صاحبنا وورود المصدر على فاعلة كثير كالعافية والطاغية والعاقبة .

ثم رأيته قليل العناية بضبط الشواهد من الشعر .

فمن ذلك بيت المتنخل الهذلي :

لا درّ درّي ان اطعمت نازلكم قرف الحطي وعندي البر مكنوز

أورده الحطي بالطاء وانما هو الحثي بالثاء وهو المقل أو سويقه . وقرفه قشره والمقل : صمغ الشجر .

وفي مادة [ب ر ع] :

فكبا كما يكبو فنيق تارزٌ بالخبت الا انه هو أبرع

والبيت أورده صاحب اللسان وصاحب التاج بالجنب أي بالجيم والنون بعدهما باء وفسره صاحب التاج اي سقط الثور . وسقوطه يقضي بأن يكون لجنبه

وفي مادة [ب س ر]

فصبّحها والشمسُ حمراءُ بسرةٌ بسابقة الأنعاء موت مُفلس

ولم أهتد للمراد بسابقة الأنماء . وإنما البيت كما أورده صاحب اللسان بسائفة الأنقا. أي الأرض بين الرمل والجلد والبيت للبعيث .

وفي مادة [ا و ب]

قد جال بين دَرِيسيه مُؤوِّبةٌ ... مُسع لها في عضاهِ الأرض تهزيز

فتح مؤوّبة على صيغة المفعول وانما هي على صيغة الفاعل وضم ميم مُسع وهي ريح الشمال وهي مكسورة .

وقد أورد صاحب اللسان هذا الشاهد في مادة [ا و ب] ومادة [هـ ز ز] بما نصه :

قد حال بين دريسيه مؤوِّبةٌ ... مِسعٌ لها في عضاهِ الأرض تهزيز



النبطية «جبل عاملة» **احمد رضا**

المقصورة[1] التاجية

تقوم مصلحة الآثار السورية منذ ثلاث سنين باعمار قسم من الجدار الشمالي في الزاوية الشرقية في الجامع الأموي . وهذا الجدار ببنائه الحالي عمر في سنة (٥٠٣) كما تشير الى ذلك عدة كتابات منقوشة عليه . والظاهر انه تأثر بحريق سنة (٤٦١) فنقض وجدد بناؤه بعد اثنتين واربعين سنة من تاريخ الحريق او ثمان وعشرين عاماً من تاريخ تجديد بناء الجامع ولا يبعد ان يكون العمل استمر في الجامع الى سنة (٥٠٣) .

على ان هذا الجدار تأثر بعدة زلازل كانت بعد هذا التاريخ أعظمها زلزال سنة (١١٧٣) الذي أحدث تخريبات عظيمة في دمشق والجامع الاموي . منها هذا الجدار الذي وقع قسم منه على أرض المسجد ودار بني الغزي في الجهة التي تجري فيها الاصلاحات الآن واmال هذا الجدار نحو الشمال (٦٥ سم)

وهذه الزاوية الشرقية الشمالية التي يجري فيها الاصلاح الآن كان لها ماض مجيد من الجهة الثقافية فكان فيها خزانة كتب وحلقة علم تمثل فيهما الحركة العلمية في دمشق بالعهد الأيوبي أحسن تمثيل وهي التي عرفت في كتب التاريخ « بالمقصورة التاجية » .

مساحة هذه المقصورة : تبلغ مساحتها من الشرق الى الغرب خمسة أمتار و (٣٠ سم) ومن الشمال الى الجنوب مثل ذلك وشرقيها وشماليها جدارا الجامع . وفي الجدار الشرقي باب يدخل منه الى دار لطيفة فيها بعض حجرات كانت تابعة لهذه المقصورة يسكنها في عصرنا مؤذنو الجامع أما الغرب والجنوب فمفتوحان

---

(١) المقصورة في المسجد قسم منه يحاط بسياج من خشب مزخرف أو نحوه لا يدخلها إلا المختصون بها . ويحدثنا ابن جبير في رحلته حينما زار الجامع الأموي عن عدة مقاصير كانت فيه وانها تتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة .

الى اروقة الجامع غير انه كان لها حواجز خشبية بصناعة مزخرفة لطيفة يوجد نموذج منها على مقربة من المقصورة في مسجد الحسين موضوعة على نوافذ كبيرة بين المشهد الخارجي والمشهد الداخلي . وقد اظهرت الحفريات الجديدة الاساس الذي كان يقوم عليه الحاجز الغربي للمقصورة التاجية .

انشاؤها : لا نعرف كيف نشأت هذه المقصورة وفي أي زمن انشئت ولكن النعيمي في تنبيه الطالب [١] يفيد بأنها كانت تعرف بابن سنان ثم بالتاجية ثم بالسلارية فمن هو ابن سنان هذا وفي أي عصر كان ؟

يقابل هذه المقصورة من جهة الغرب مقصورة شافعية تعرف بالزاوية الغزالية [٢] لأن الغزالي الشهير نزلها ودرس فيها بعد الشيخ نصر المقدسي المتوفى سنة (٤٩٠) ووقف عليها صلاح الدين الأيوبي قرى بصيدا [٣] .

فالظاهر ان المقصورة التاجية وهي حنفية انشئت في الجانب الشرقي لتناظر الزاوية الغزالية الشافعية في الغرب فكانت التاجية معقلاً علمياً للتكتل الحنفي يدعمها ملك دمشق (المعظم عيسى) ذو الحماسة الشديدة لمذهبه الحنفي [٤]

فتاج الدين الكندي استاذ الملك ، والمؤرخ الشهير بسبط ابن الجوزي الحنفي — صديق الملك — وكان من أعظم وعاظ عصره يعظ الناس قبلي هذه المقصورة بكرة النهار كل يوم سبت فكان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون

(١) نسخة خطية في المجمع العلمي بدمشق [١ : ٧٠٤] منها . وتؤيد الكتابات المنقوشة على الأحجار في هذه المقصورة هذا النص . وفي البداية والنهاية [١٣ : ٧٢] ما يفيد بأنها تدعى بمقصورة ابن سنان الحلبية ، كما تدعى الحلبية فقط ، ويسميها ابن فضل الله العمري في مسالك [١ : ١٩٦ و ١٩٧] بالحلبية . (٢) كانت هذه المقصورة على هيأة قبة من خشب مطلي بدهان أخضر سكنها في الأزمنة المتأخرة مهاجرة الأفغان ثم أخرجوا منها سنة [١٣٣٦ ه] تقريباً ورفعت هذه القبة وأتلفت حتى لا يعود اليها أحد . (٣) طبقات السبكي [٤:١٠٤] وتنبيه الطالب (٤) لمعرفة شدة حماسه للمذهب الحنفي يراجع ابن خلكان [١:٥٠١] النجوم الزاهرة [٦:٢١١] السهم المصيب في كبد الخطيب وهو من مؤلفاته للانتصار لابي حنيفة .

البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده وكان تاج الدين الكندي وغيره من المشايخ يحضرون عنده تحت قبة يزيد[1] التي عند باب المشهد كما كان الملك المعظم يحضر دروسه في بعض الأحيان . ومحمد بن عروة الموصلي — وهو من خواص الملك المعظم — انشأ على مقربة من التاجية مقصورة اخرى اشتهرت بالعروية وقف فيها درس حديث وخزائن كتب .

فهذه أمور كلها تشير الى التكتل الحنفي الذي كان يغذيه الملك المعظم وينميه .

وكان لهذه المقصورة قيمة عظيمة في نظر الناس فحينما قدم قاضي القضاة صدر الدين الحنفي البصراوي الى دمشق من القاهرة وخرج الناس لتلقيه وهنؤه قرئ تقليده بالمقصورة الكندية في الزاوية الشرقية من جامع بني أمية[2] وأقدم وثيقة لدينا عنها هي الكتابة المنقوشة على الجدار الشمالي لجهة الغرب منها المتضمنة أوقافاً على هذه المقصورة من قبل ناصح الدين الغيدي ويرجع تاريخها الى سنة (٥٨٩) . وناصح الدين هذا لا نعرف عنه اكثر مما جاء في الروضتين[3] فقد ذكر مؤلفها في حوادث سنة (٥٨٣) ان صلاح الدين جمع الأسارى المعروفين وسلمهم الى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي . وهناك وثيقة ثانية عنها هي اجازة تاج الدين الكندي المؤرخة سنة (٥٩٨) وهي تفيد قائمة عظيمة بأسماء ستة وثمانين شخصاً من العلماء والأدباء والأمراء والأعيان وغيرهم الذين سمعوا على تاج الدين المذكور المجلدة الرابعة من شرح معاني الآثار للطحاوي في المقصورة المذكورة بالتاريخ المتقدم وبتاج الدين هذا عرفت هذه المقصورة فترجم لها النعيمي في تنبيه الطالب باسم الزاوية التاجية .

(١) البداية والنهاية [١٣ : ١٩٤] وقبة يزيد هذه كانت تعرف قبل عصر ابن كثير بقبة زين العابدين ، وتعرف في عصرنا بقبة الساعات . وكانت قائمة على أعمدة كقبة المال القريبة من الزاوية الغزالية ولكنها سقطت في زلزال سنة [١١٧٣] فأعيد بناؤها على جدران . وهذه القبة هي المقابلة لباب مشهد الحسين المعروف في كتب التاريخ بمشهد علي .

(٢) البداية والنهاية ١٤ : ٦٣ . (٣) ٢ : ٧٩

مكتبة هذه المقصورة : كانت المكتبة ولا تزال جزءاً من أجزاء المدرسة لذلك كان من اللازم ان يكون لهذه المقصورة مكتبة يلجأ اليها الدارسون للمطالعة والدراسة . وقد أشار لهذه المكتبة عدد من المؤرخين ويحدثنا ابوشامة انه وجد فهرس هذه المكتبة بخط واقفها تاج الدين الكندي وان عدتها (٧٦١) مجلداً وهذا تفصيلها [١] :

(١٤٠) علوم القرآن و (١٩) الحديث و (٣٩) الفقه و (١٤٣) اللغة و (١٢٢) الشعر و (١٧٥) النحو والتصريف و(١٢٣) علوم الأوائل من طب وغيره

ويجب ان لا نغفل عن نص ابن خلكان الذي يقول فيه عن الكندي انه لما سافر الى مصر اقتنى من كتب خزائنها كل نفيس وما قاله ابن القفطي انه اقتنى من كتب خزائن الديار المصرية عند ما بيعت في الأيام الناصرية كل نفيس على قلة ما ابتاعه . ومن الواضح ان ابن القفطي يريد بهذه الخزائن خزائن الفاطميين وان المراد بالأيام الناصرية أيام صلاح الدين . ومن هذا نعلم قيمة هذه المكتبة القيمة رغم قلة عددها على ان ياقوت الرومي — وهو الخبير بالكتب وقيمها — يعظم من شأن هذه المكتبة فيقول عن تاج الدين الكندي : وكانت له خزانة كتب جليلة في جامع بني أمية [٢] .

ويقول أبو شامة : وكان معتقه نجيب الدين ياقوت قد هيأ لها خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق ونقل اليهـا جملة من هذه الكتب ثم انها تفرقت وخرجت عن الخزانة وعدمت وبيع جملة منها سراً وجهراً [٣] .

ويترجم ابن كثير [٤] مولى تاج الدين الكندي فيقول : ياقوت ، ويقال له يعقوب بن عبد الله نجيب الدين مولى الشيخ تاج الدين الكندي وقد وقف اليه الكتب التي بالخزانة بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق وكانت سبعمائة واحدى وستين مجلداً ، ثم على ولده من بعده ثم على العلماء فتمحقت هذه الكتب

(١) ذيل الروضتين (٢) معجم الأدباء ١١ : ١٧٥ (٣) ذيل الروضتين (٤) البداية والنهاية ١٣ : ١١٦

وبيع أكثرها وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب وشعر جيد وكانت وفاته ببغداد في مستهل رجب سنة (٦٢٣) .

ورغماً عن مبالغة ابي شامة وابن كثير في تمزيق هذه المكتبة فاننا نجد ابن فضل الله العمري المتوفى سنة (٧٤٩) يشير الى ان مكتبة المقصورة كانت موجودة في عصره[1] على انه أنشئ الى جانب هذه المقصورة مكتبة ومقصورة علم كانت كالدعامة لها فقد أنشأ محمد بن عروة المتوفي سنة (٦٢٠) في مشهد الحسين الملاصق لهذه المقصورة خزانة كتب ودرس حديث[2] ويحدثنا ابن ابي أصيبعة[3] بأن أبا الفضل بن عبد الكريم المهندس اختصر الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني وكتب نسخة منه بعشر مجلدات ووقفها في الجامع الأموي مضافة الى الكتب الموقوفة في مقصورة ابن عروة .

كتابات المقصورة القديمة : في هذه المقصورة خمس كتابات بخط نسخي عادي منقوشة على أحجار في الجدران داخلها تعطينا فكراً عن نواح قيمة فيها . وقد تناثر كثير من حروف الكتابة فلم تظهر معالمها . ومن الغريب ان بعض الناس أخذ في قراءة هذه الكتابات فظهر له منها انها اسماء عقارات موقوفة على الموسسات

الكتابة الأولى : على الجدار الشمالي في المقصورة (٦٣ × ٧٣) ونصها :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم وقف الأمير (٢) ناصح الدين الغيدي بن محمود تقبل الله (٣) منه الربع من قرية دربل من الاقليم[4] (٤) وعمارة الفندق الذي أنشأه خارج باب (٥) شرقي على القراء الأخيار الحفاظ الحنفية (٦) يقرأ كل واحد سبعاً من القرآن بكرة كل (٧) يوم في هذه المقصورة ويلقن الصبيان المتعلمين (٨) لكتاب الله بها على ما ذكر في كتاب الوقف (٩) المقر لها وذلك في سنة تسع وثمانيـ[ـن] وخمـ[سمائة] .

(١) مسالك الأبصار ١ : ١٩٦
(٢) تنبيه الطالب مخطوط والبداية والنهاية ١٣ : ١٠١
(٣) عيون الأنباء ٢ : ١٩١
(٤) الاقليم هو ما يسمى في عصرنا بقضاء وادي العجم

الكتابة الثانية : في الحائط الشرقي على يمين الداخل الى الدار المعروفة قديماً بالحلبية (٧٩ × ٥٥) ونصها : — (١) بسم الله الرحمن الرحيم وقف الفقير الى رحمة الله تعالى (٢) الحاج الياس بن بشارة بن أبي الحسن[1] جميع البستان المحدو (٣) د الموصوف بقرية كفرسوسية ونصف وثمن الحقول (٤) التي تحت المنيب[ع][2] على المقصورة الشرقية الحنفية المعروفة (٥) بمقصورة بن سنان وقفا على الخبز والكسوة بما يرآه النا [ظر] (٦) الى كتاب الوقفية وذلك في جماد الأول سنة احدى وستمائة للهجرة .

الكتابة الثالثة : على مقربة من الكتابة الأولى أسفل منها قليلاً (٩٠×٨٠) ونصها : — (١) بسم الله الرحمن الرحيم وقف الفقير الى رحمة الله تعالى (٢) السلار اسماعيل بن سليمان بن ايداش[3] عن الحاج الياس بن بشارة (٣) ابن ابي الحسن جميع ما ابتاعه بثلث ماله الذي أوصى به في ذلك وهو (٤) بدمشق وظاهر[ها] منه دار بدرب المحرزيين من ناحية درب (٥) الريحان[4] ومنه أربعة اسهم وثلث وربع سهم من اربعة وعشرين سهماً (٦) من كل واحد من الثلاث الحوانيت بسوق الأ[سا كفة] العتق ومنه الثم[ن] من الفندق (٧) والعشر حوانيت و [منه] . . بالعقيبة تعرف . . . [و] منه ثلث الث . . . . ه (٨) المعروفة بالطيرة [خارج السـ] ور على الفقراء والمساكين . . . . . (٩) . . . . . .
(١٠) . . . . . خمس عشرة وستمائة .

الكتابة الرابعة : خلف الدعامة التي ترتبط بها أقواس الرواق الشمالي مع الرواق الشرقي وتجعل المقصورة مربعة الشكل (٦٦×٨٣) ونصها : — (١)

---

(١) هو أحد أصدقاء التاج الكندي وتلاميذه وسيأتي ذكره فيمن سمع عليه شرح معاني الاثار

(٢) المنيبع محلها قديماً مكان حارة الحلبوني اليوم (٣) اسماعيل بن سليمان بن ايداش ابو طاهر الحنفي ابن السلار حدث عن الصائن هبة الله وعبد الخالق بن أسد وتوفي في ذي القعدة سنة [٦٣٠] شذرات ٥ : ١٣٥ (٤) درب الريحان هو الدرب الذي شرقي البزورية قبيل خان اسعد باشا العظم وعلى صفه ويعرف اليوم بسوق التبن وفيه دار القرآن والحديث التنكزية المعروفة في عصرنا بالمدرسة الكاملية نسبة الى الشيخ كامل القصاب .

[بسم الله الرحمن الرحيم وما تف] علوا من خير يوف اليكم وانتم (٢) [لا تظلمون] هذا . . . بسر العبد الفقير الى غفران (٣) [ربه الا] مام العلاء [مة] حجة العرب تاج الدين الكندي ابو اليمن زيد (٤) [ابن] حسن الكندي تقبل الله منه وأثابه الجنة اوقف (٥) . . . . بس تسعة اسهم من اربعة وعشرين سهماً من (٦) . . . . [ف]ندق والحمام والعشرة حوانيت المعروفة (٧) . . . . . . [فن]دق الحوانيت انشاء ابن اسرائيل تصرف (٨) في [ر]جب وشعبان ورمضان في ليالي الجمع (٩) . . . . . . نسوة وغيره ودار جامعة في درب العجم[1] (١٠) و . . . . . . بع مقرئين يقرؤن في كل ليلة بعد صلاة . . . . (١١) . . . . . . صف سبع من القرآن الع[ظيم] فمن بدله (١٢) [بعد] ما سمعه فانما اثمه على الذين [يبدلـ]ونه (١٣) وعلى القراء حجرة طباق الزقاق[2] . . . (١٤) من ربيع الآخر سنة تسع وثلثين وستمائة[3] .

الكتابة الخامسة : على الجدار الشمالي غربي المقصورة الى جانب الكتابة الأولى (٧٥ × ٧٣) ونصها : — (١) بسم الله الرحمن الرحيم وقف الأمير . . . . . الدين (٢) . . . . بن الأمير عز الدين ياقوت الـ . . . . العبدي (٣) رحمه الله جميع السهام الأربعة التي هي السدس شائعاً من (٤) . . . من ضيا (٥) . . . . (٦) . . . . سبع وخمس[ين] وستمائة .

☆ ☆ ☆

وبعد فلا نعلم الزمن الذي اضمحل فيه أمر هذه المقصورة والظاهر من كلام عبد الباسط العلموي المتوفى سنة (٩٨١) انها كانت معروفة في عصره . وحينما حصل زلزال سنة (١١٧٣) وحصل الخراب في هذه البقعة لم نجد أحداً يشير اليها مما يدل على أنها كانت غير معروفة في هذا التاريخ .

محمد احمد دهمان

---

(١) عين أبو شامة في ذيل الروضتين مكان درب العجم بأنه في جيرون وجيرون هي شرقي باب الجامع الأموي الشرقي وتعرف اليوم بالنوفرة . (٢) هذا السطر ا بعد ألحق إلحاقاً بخط دقيق
(٣) توفي تاج الدين الكندي سنة [٦١٣] فتكون هذه الكتابة قد نقشت بعد وفاته بـ[٢٦] سنة .

الملك الظاهر بيبرس

لا ينتهي هذا العام أيها السادة حتى يكون المجمع العلمي قد انتهى من إصدار عشرين مجلداً من مجلته : تفجرت ينابيعها بالأبحاث المختلفة في اللغة وآدابها وما له اتصال بها ·

وقد أخذ المجمع يفكر في تنظيم فهرست عام لهذه المجلدات العشرين · يدني ليد المراجع بعيدها ويسهل عليه الرجوع الى ما خبيء فيها ·

وقد احببت ان أنظم لنفسي فهرستاً يشتمل على بعض ما في هذه المجلدات العشرين من الأبحاث الخاصة : فأحصيت المقالات التي بحثت في الأوضاع اللغوية فوجدتها تبلغ ٣٠٠ مقالة ونيفاً · ثم أحصيت ما فيها من تراجم الأعيان ومشاهير الرجال فكانت نحو ثمانين ترجمة منها (١٥) للمستشرقين وهناك ترجمة لبوذه معبود الصين · واخرى لطاغور شاعر الهند · وثالثة لأحمد باشا الجزار الوالي التركي المشهور بالظلم في تاريخنا الحديث ·

هذا ما وجدته في العشرين مجلداً من تراجم الرجال · أما محاضرات المجمع التي ألقيت في هذه الردهة فربما بلغ عددها في الخمس والعشرين سنة ٢٥ محاضرة · منها محاضرات خاصة بذكر مناقب رجال التاريخ حتى احمد باشا الجزار نفسه فان له محاضرة مستقلة وُصف فيها بسوء السيرة لكنها أحيت ذكره على كل حال ·

لا أكاد أصل في إحصائي هذا الى ذكر (الجزّار) حتى أسمع صوتاً من ورائي وعلى بعد عشرين متراً من موقفي هذا ·

في هذا الصوت عُجمة وارتضاخ لكنة وعليه مسحة من جلال الموت ووحشة القبور يقول : أقلقتم راحتي · في هدأة رقدتي · نحواً من خمسٍ وعشرين سنة · وأنا اسمعكم من فوق منبركم هذا تخطبون وتحاضرون · وأحياناً الى الغثّ من القول تستطردون · ولم أسمعكم قط ذكرتم اسمي في كل ما نشرتموه في مجلتكم أو نوهتم بشيء من أعمالي في محاضراتكم ·

أيكون لبوذه الصيني وطاغور الهندي والجزّار التركي نصيب من اهتمامكم في مجلتكم ومحاضراتكم ولا يكون لجاركم بيبرس البندقداري شيء من ذلك حتى كأن مآثري ذهبت هباء . أو أنني ربذة ملقاةٌ في الفناء لو لم يكن لي من جليل الأعمال إلا أني أكملت ما بدأه نور الدين وصلاح الدين ومهدت الطريق لرابعنا (قلاوون) وبذلك تم جلاء عدوّكم عن بلادكم — لكفاني فخراً وعُجباً . ولسوّغ لي أن أوسعكم لوماً وعتباً . أين أنتم من مراعاة جواري . وحسن مجازاتكم لي على حلول داري .

هذا ما تخيلت أني اسمعه — أيها السادة — من جارنا الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي رحمه الله . وقد خجلت يعلم الله منه . وأسرعت الى تدارك ما فرّط منا معشر المجمعيين فخصصته بهذه المحاضرة التي لا حسن فيها سوى براءةِ ذمتنا وأداء الحق الذي علينا لجارنا .

حقاً أيها السادة إن في إغفالنا ذكر هذا الملك المنقذ بين من نوهنا باسمهم في مجمعنا شيئاً من نكران الجميل . وغمط الحق . أو هو ذنب لا يغفره الا موقفي هذا . وحسنُ إصغائكم إلى ما أسرده على مسامعكم من مآثر الرجل ووصف ما أوتي من جلد وشجاعة وحسن تدبير ولطف سياسة حتى أمكنه جمعُ كلمة البلاد وزعزعةُ أركان المتغلب عليها وجعله على أوفازِ للجلاء عنها .

وقبل الشروع في المحاضرة نقول لجارنا الملك : سمعنا عتبك علينا وسنعمل على إعتابك ما وسعته طاقتنا غير أن امر نشأتك في بلادك حتى حللت بين أظهرنا مما غاب عنا خبره . واختلف الرواة فيه . فهل لك أن تُسمعنا الحديثَ عنه من فمك ثم نصله بالمدوّن المنقول الينا من خبرك وما كان من محاولتك الملك حتى نلت منه امنيتك . وقضيت نهمتك .

* * *

قال نعم : منبتي صحراء الدشت من قوم رُحّل يسمّون قبجاق أو قفجاق وتنسب الصحراء اليهم فيقال دشت قفجاق . وبلادي واقعة وراء جبال القفقاس وهي

تمتد بين البحرين : بحر الخزر من الشرق والبحر الأسود من الغرب (وهي اليوم تؤلف جزءاً كبيراً من روسية اوروبا) ومعظم سكانها مسلمون · ومن مدنها كاسان واوفا وسراي (ولعلها التي تسمى اليوم استرخان) ومن أنهارها نهر (اتل) (الذي يسمى اليوم نهر الفولكا) ومن شعوبها القرغيز والبرغال أو البلغار (وهم البلغار الأقدمون) وكلنا من أصل تتري · وقد ولدت من أبوين قفجاقيين سنة ٦٢٥ هـ فسمياني (بيبرس) أي الفهد · واتفق ان أغار علينا اخواننا التتر من أحفاد جنكيز خان وذلك سنة ٦٣٩ هـ فالتجأنا الى اخواننا بلغار بلاد الروسية بعد الاستئذان من ملكهم (أنس خان) فسمح لنا بدخول بلاده ثم غدر بنا وسبى من يصلح للسبي منا · وكنت أنا من جملة السبي · وعمري يومئذ ١٤ سنة · ولا يشوقني من لذائذ صبوتي في بلادي سوى ركوب الخيل ولحاق طرائد الوحش عليها وسوى أني كنت مولعاً بشراب القمز حتى وكان هذا الشراب سبب موتي في بلادكم (والقمز أيها السادة شراب يتخذ من حليب إناث الخيل[1])

قال بيبرس : ولا تخطر بلادي في بالي حتى الخيل التترى من قومي راكعاً بين ساقي فرسه ممسكاً بأخلافها منهمكاً في احتلابها حتى اذا تجمع هذا الحليب لدى الأسرة باعوا بعضه وشربوا بعضه وعزلوا شيئاً منه لاتخاذ القمز · وكأني أنظر الى عمي وهو متدثر بفروته الثقيلة من جلد الغنم يتقي بها البرد · وعلى رأسه كمة كثيفة مبطنة بالفرو وقد أخذ بين يديه زبدية كبيرة فوضعها على فمه

(١) لا يخفى أن فقهاء الاسلام كرهوا أكل لحوم الخيل وشرب ألبانها خشية انقراضها وهي آلة الجهاد · أما فقهاء ما وراء النهر المنتشر مذهبهم بين أهل سيبيريا ومنهم القفجاق فقد كرهوا لحوم الخيل المعدة للجهاد أما تلك التي تعيش سائمة وترعى قطعاناً كما ترعى البقر والغنم فلا كراهة في أكل لحومها ولا شرب ألبانها · ويقول الخبيرون أن قبائل سيبيريا ما زالوا الى أيامنا هذه يربون من الخيل قطعاناً ينتفعون بلحومها وألبانها ونتاجها على نحو ما نفعل بمواشينا · كما أنهم يتخذون من ألبانها شراب القمز المعروف قديماً · (والقِمِزّ) بكسر القاف والميم وتشديد الزاي كما ضبطه مؤرخو الاسلام · أما الانكليز فيلفظونه هكذا (قوميس Kaumiss) والقوميس في سيبيريا اليوم معامل يحضر فيها بمقادير كبيرة ويصدر الى الخارج في زجاجات مفدمة كما يفعل الأوربيون في تصدير أشربتهم ومقوراتهم (القونسروا) الى بلادنا ·

وجعل يكرع ويكرع من شراب القمز وأكون في ناحية انتظر فراغه لأشرب ما فَضَلَ عنه من ذلك الشراب اللذيذ ·

ثم قال (بيبرس) متماً حديثه وساقنا النخّاسون الذين اشترَوْنا من بلاد (انس خان) الى سيواس ومنها الى حلب فدمشق · فاشتراني العمادُ الصائغ لكنه أخيراً زهد فيَّ لبياض رآه في احدي عينيّ واحتاج المنصور ملك حماة الى مماليك فنقلني النخّاس الى حماة ·

وكان الملك المنصور هذا يومئذ صبياً وكان اذا اراد شراء رفيق عرضه أولاً على الخاتون الكبرى والدته فأحضروني اليها ومعي رفيق لي فجعلت تنظر الينا من وراء ستار · فأمرتْ بشراء رفيقي وقالت تخاطب ابنها المنصور مشيرةً إليّ (هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فانّ في عينيه شراً لائحاً) قال وقد أثارت كلمتها في نفسي هواجسَ لاذعة مازالت تنمو وتتطوّر وتسوقني الى طلاب الملك حتى نلته ·

قال واتفق أن كان في حماة يومئذ الأمير أيديكين البندقداري مسجوناً بأمر سيدَه الملك الصالح أيوب (حفيد من نحن في مدرسته أعني الملك العادل) فبلغه خبري فاشتراني ثم افرج سيده الملك الصالح عنه فخرجت مع ايديكين من حماة الى مصر وغضب الصالح عليه ثانية فصادره · وكنت أنا في جملة أموال المصادرة وأصبحت من يومئذ (الصالحي) إي المنسوب الى الملك الصالح بعد ان كنت (البندقداري) اي المنسوب الى الأمير ايديكين البندقداري وكان عمري يومئذ تسع عشرة سنة ·

أقول فيكون بيبرس قضى خمس سنوات وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن يد سيد الى يد سيد حتى استقر أخيراً في حوزة الملك الصالح أيوب · فكان نعم المستقر : إذ قد عرف له الملك نجابته وادرك ان الشرّ اللائح في عينيه الذي تشاءمت به الخاتون انما هو خير : إذ لا يستقر ملك في ذلك الزمن إلا به · ولا تعتدل قناةُ حكمٍ إلا إذا قُوّمت بثقافه : غدرُ ملك بلغار ببيبرس وبقومه · وتنقله أسيراً رقيقاً في البلاد · وقولُ الخاتون ان في عينيه شراً لائحاً ·

ودخوله في جملة الأموال المصادرة التي قد يكون بينها دوابٌ ومتاع — كل ذلك قد لا يوري نار الحماسة في نفس غير نفس بيبرس أما في نفس (الفهد) كما سماه ابوه تلك النفسُ المتمردة الوثابة فان كل ما ذكرناه قدح فيها زنداً وارياً وأثر فيها تأثير الانتباه واليقظة للوسط الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش فيه : فجعله يعتقد ان حياته لا تستقيم وعيشه لا يطيب . وبغيته لا تنال ما لم يتسلح بأسلحة ذلك العهد : القوة والبطش والدهاء والمكر والانتقام أحياناً .

عاش بين مماليك سيده الملك الصالح وكلهم أتراك شجعان فرآهم انما يتحدثون عن المُلك وأدواته . والعرش وشهواته . وأخبار الملوك من أبناء جنسهم والطرق التي سلكوها . والأساليب التي اتخذوها حتى بلغوا أهدافهم وكان من اسماها تسنُّم العروش .

كان في بيبرس نجابةٌ وشجاعة وكان فيه فطنة وذكاء . وصلابةُ عود واستعداد لاستعمال أساليب تلك العهود . من حيث يؤدي ذلك الى الملك .

وكان بين هؤلاء المماليك الكثيري العدد اثنا عشر ملكاً مسَّهم الرقّ فلم يكن يُعرف اسمُ آبائهم . ومنهم بيبرس جارنا وكان المؤرخون اذا نسبوا هؤلاء الملوك الأرقاء قالوا (فلان ابن عبد الله) إشارةً الى جهالة أصله وكان بيبرس من أبناء عبد الله هؤلاء وقد نَظَمَ بعض الشعراء اسماءهم بحسب ترتيب تملكهم في بيتين من توقيع المواليا فقال :

(ايبَك) (قُطُز) بعقبو (بيبرس) يا ذا الدين
بعدو (قلاوون) بعدو (كتبُغا) (لاچين)
(بيبرسْ) (برقوق) بعدو (شيخْ) ذو التبيين
(ططَر) (بَرسْباي) (جقمَقْ) صاحب التمكين

ولما جاء بيبرس الى بلادنا (او نقول بحسب التعبير الحديث الى الشرق الأدنى) كان السلطان فيها موزعاً بين أولاد صلاح الدين وأخيه العادل : أولاد العادل في مصر ومنهم الصالح أيوب سيد بيبرس واولاد صلاح الدين في الشام وكان معظمُ الساحل وبعضُ الداخل بيد الصليبيين .

وهناك خلافة ببغداد مهددة بالسقوط في يد التتار . فالبلاد كانت واقعة بين شرين أو عدوين ضاربين (التتار) و (الصليبيين) . ويليهم من جهة آسيا الصغرى التي هي مستطرق الصليبيين أرامنة وروم مسلمون وهم السلاجقة في كيليكيا . وروم مسيحيون وهم البيزانسيون في القسطنطينية . ومن سوء طالع البلاد بأقطارها الثلاثة مصر والشام والعراق أن كان ملوكها المسلمون متشاكسين متدابرين يتربص بعضهم لبعض الدوائر وسنوح الفرص للبطش ، والنزوان على العرش . ولم يقم بعد صلاح الدين واخيه العادل من يجمع كلمتهم . ويقف بهم في وجه عدوهم على شاكلة ما فعل صلاح الدين . وقد تنبه الى هذا كله (بيبرس) فكان نعم الدرس تلقاه عن سيده الملك الصالح حفيد الملك العادل . وقد وثق به سيده فجعله قائد فرقة مماليكه . وشهد معه وقعة دمياط الشهيرة التي أسر فيها ملك فرنسا (لويس التاسع) أو القديس لويس وهو المعروف عند العرب باسم الفرنسيس .

وصحب بيبرسُ بعد موت سيده الصالح ابنه الملك المعظم (توران شاه) وكان المعظم هذا شاباً أخرق سيء التدابير . فتآمر مماليك أبيه على قتله وكان أولُ من علاه بالسيف منهم جارنا وبطل محاضرتنا (الظاهر بيبرس) . وبعد المعظم قامت بأمر المُلك شجرة الدر زوجة الملك الصالح . فأنفَ المماليك سلطانها عليهم فولوا أحدهم وهو المعزّ ايبك (سنة ٦٤٨ هـ) وعمر بيبرس يومئذ ٢٣ سنة عندها تثاءب الفهد وتمطى وتهيأ للوثوب واستيقظت في نفسه شهوة الملك النائمة وطمع فيه بعد ان رأى انتقاله من أسياده بني أيوب الى رفاقه وخشداشيته المماليك .

في نفس بيبرس ميل للفتك كما قلنا . وفي عينيه آثار للشر كما قالت الخاتون غير ان وراء ذلك كله عملاً ينتظره وخدمةً يتمناها وقد رأى أن هذه الخدمة لا يوفيها حقها إلا هو فمنذ تولى الملك رفيقه (المعز ايبك) ترأس هو حزبَ المعارضة المتطرّفة . ووضع مخططها أمام عينيه واخذ في دس الدسائس . ونصب المكايد . تارةً في مصر وطوراً في الشام . وكان يجهز عسكراً ويصمدُ به الى مصر فيُهزَم بيبرس ويُقتَل من معه من الأمراء ويرجع الى الشام فيجهز عسكراً ثانياً . أو دسيسةً ثانية . ولماذا كل هذا ؟ أهو لطمعه في الملك ؟ وفي ما يحتف

به من العظمة وأبهة السلطان يا ترى ؟ أو لطمعه في أن ينال شرف خدمة الاسلام وإنقاذ البلاد من براثن الضاريين التتار والصليبيين ؟ الله يعلم . ولكن من تأمل في أعماله بعد ان تولى الملك رأى في تضاعيفها وفي النهج الذي سلكه لإنقاذ البلاد ما يُشعر بأنه كان مخلصاً . في ما كان يرتكبه من الشر على حد تعبير الخاتون الأيوبية . واثقاً بأن الله سيغفر له خطاياه على حد تعبير الآية الكريمة (إن الحسنات يذهبن السيئات) . وعلى حد ما رواه احمد بن طولون أمير مصر وهو قوله (حدثني فلان عن فلان عن وهب بن منبه انه قال (اوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل : مُرْ عامةَأمتك ان لا تتأسى بالملوك في ارتكاب الكبائر فان للملوك كبائر من الأفعال الجميلة لا يصل اليها غيرهم تمحص بها آثامهم ويحسن بها صدَرهم) اه (راجع ص ٣٣٤) من سيرة ابن طولون اقول ولا يسلم هذا الحديث من نقد وتجريح بل هو من قول ابن منبه وهو غير ثقه .

لم يكد الملك المعزّ ايبك يستقر على العرش بعد شجرة الدر حتى رفع بيبرس صوته قائلاً : نريد ملكاً من سلالة اسيادنا بني ايوب ولا نريد ان يملك علينا رجل من غيرهم . وأدّى الأمر أخيراً الى قتل (المعزّ) فخلفه على العرش ابنه (المنصور) فوقف جارنا بيبرس من الابن موقفه من الأب موقف معارضةٍ ودسٍ وتأليب ثم خلعوا (المنصور) بحجة صِغره فتولى بعده المظفر قُطز وهو مملوك المعزّ ايبك المقتول وكان ذلك سنة ٦٥٧ ه وعمر بيبرس ٣٢ سنة فعظم الخطب على بيبرس وجعل يتنزّى تنزّي الفهد في القفص وزاد حقده . واشتد كيده وأوشك ان يلتهب شوقاً الى الملك أو شوقاً الى الوقت الذي يمكنه فيه إنقاذ البلاد من الخطر المحدق بها . ولا سيما بعد أن بلغه خبر استيلاء (هولاكو) على بغداد وقتله الخليفة (المستعصم) .

وكان بيبرس في زمن (قُطز) مقيماً في دمشق لاجئاً الى ملكها (يوسف صلاح الدين) الثاني وهو من أحفاد صلاح الدين الكبير ثم رأى بيبرس ان مكثه في دمشق لا يجديه نفعاً . ولا يمكنه من (قُطز) وإسقاطه ما لم يكن

مقيماً بجانبه يطالع الأمور عن كثب . فأرسل بيبرس الى قطز يلاينه ويعاتبه في بعض الشيء ثم استحلفه أن لا يخونه اذا جاءه فحلف له قطز . فجاء بيبرس الى مصر وانضم الى مماليكها الذين يعملون في خدمة (قطز) ثم شهد معه وقعة (عين جالوت) على مقربة من نابلس وهي الوقعة التي دحر قطز فيها التتار . واستأصل شأفتهم من بلاد الشام . وكان انتصاره هذا عليهم كأنه انتصار على بيبرس وخذلان له في ما يؤمل ويريد . لكنه مع هذا تشدد ونشط الى تدبير مؤامرة على قطز في أثناء إيابه من الشام الى مصر منتصراً فاغتاله وهو بعيد عن المعسكر في لحاق طريدة أرنب . واقدامه على هذا العمل يعد من أكبر آثام بيبرس وأفظع ما ارتكبه من الجرائم . ولا سيما ان (قطزاً) كان ممدحاً . حسن السيرة . ولم يكن كالمعظم توران شاه الذي كان بيبرس قتله قبله نقول هذا ولا نبالي جارنا الذي بنصت الينا . وقد يغضب من سماع قولنا . لأن التاريخ يقول كلمته ثم لا يستعتب . ولا يبالي بمن غضب إلا أن يعود التاريخ نفسه فيعتذر له بأن هذا الغدر انما تعلمه بيبرس من إخوانه ومن ملوك زمانه

(فلا تحسبوا هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند)

(وإن ننس لا ننس ملك بلغار (أنس خان) الذي غدر ببيبرس وقومه فشرد به في البلاد . وصيره رقيقاً تتداوله أيدي الأسياد) .

وبعد ان قتل بيبرس (الملك قطزاً) أقبل مع رفاقه الى الدهليز السلطاني (أي المعسكر) وفيه أمراء الجيش ينتظرون رجوع الملك من طرد الأرنب . فهتف الأتابك (أقطاي) (والأتابك لقب بمنزلة وزير الدولة اليوم) قائلاً من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا . فقال الأتابك (يا خوند اجلس على مرتبة السلطان) وكان ذلك سنة ٦٥٨ هـ وعمر بيبرس ٣٨ سنة .

وأخذ من يومئذ يفكر في جمع كلمة ملوك الشام والحجاز وحملهم على الخضوع له بمختلف الوسائل ليتمكن بذلك من إتمام ما بداه الملكان (نور الدين) و (صلاح الدين) من طرد الصليبيين وتطهير البلاد من معرتهم . المغربي

رأس يحيى ورأس زكريا

المشهور على ألسنة الناس في حلب انْ الضريح العظيم الذي في جامعها الأعظم فيه جثمان زكريا وقد وصل بنا البحث في تاريخ حلب الى ان الموجود في جامع حلب هو قطعة من رأس يحيى او رأس ابيه زكريا عليهما السلام · واليك البيان :

قال في الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة (ص ٧٤) وذكر ابن العظيمي (الحلبي) في تاريخه في سنة خمس وثلاثين واربعمائة ظهر ببعلبك في حجر منقور رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فنقل منها الى حمص ثم منها الى مدينة حلب في هذه السنة ودفن بهذا المقام (مقام ابراهيم عليه السلام الذي في قلعة حلب) في جرن من الرخام الأبيض ووضع في خزانة الى جانب المحراب واغلقت ووضع عليها ستر يصونها · وذكر الكمال بن العديم في تاريخه ان الملك العادل نور الدين ابن عماد الدين زنكي جدد عمارته · وفي سنة تسع وستماية في ايام الملك الظاهر غياث الدين غازي احترق بنار وقعت فيه وما كان من الخيم والسلاح وآلات الحرب شيء كثير واحترق الجميع ولم يسلم من الحريق الا الجرن المذكور ودفع الله عنه سبحانه النار وهذا مما يدل على ان الرأس الذي وضع فيه رأس يحيى عليه السلام لأن النار لم تصل اليه وحمي منها · وقال كمال الدين (ابن العديم) أيضاً ان ابا الحسن علي بن ابي بكر الهروي [1] أخبره وقال ان بقلعة حلب في مقام ابراهيم عليه السلام صندوقاً فيه قطعة من رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ظهر في سنة اربع وثلاثين واربعماية اهـ ·

وفي كتاب الصلصلة في الزلزلة للجلال السيوطي · في سنة ٤٣٤ زلزلت تدمر وبعلبك ومات تحت الردم معظم اهل تدمر اهـ · أقول يظهر ان هذا هو السبب في ظهور رأس يحيى عليه السلام في بعلبك ·

---

(١) وفاته سنة ٦١١ وهو صاحب كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ·

سبب نقل هذا الصندوق الى الجامع الأعظم في حلب

قال في الدر المنتحب (ص ٧٦) ما ملخصه : لما تسلم التتر قلعة حلب سنة ثمان وخمسين وستماية اخربوها واخربوا الجامع (الذي فيه المقام) ثم احرقوا المقامين (مقام ابراهيم ومقام الخضر على ما يقال) حريقاً لا يمكن جبره وذلك في احد الربيعين من سنة تسع وخمسين وستماية .

ولما احرق المقام الذي هو الجامع عمد سيف الدولة ابو بكر بن ابليا الشحنة بالقلعة المذكورة والناظر على الذخائر وشرف الدين ابو حامد بن النجيب الدمشقي الأصل الحلبي المولد الى رأس يحيي بن زكريا عليهما السلام فنقلاه من القلعة الى المسجد الجامع في حلب ودفناه غربي المنبر وقيل شرقيه (وهو الصواب) وعمل له مقصورة بهويزار اه .

وفي الجزء الأول من تاريخنا (اعلام النبلاء ص ٢٩٥) نقلاً عن هامش تجارب الأمم نقلاً عن صاحب تاريخ الاسلام (الذهبي) في حوادث سنة ٣٥٧ في هذه السنة في ذي القعدة اقبل عظيم الروم نقفور بجيوش الى الشام فخرج من الدرب ونازل انطاكية (الى ان قال) ثم سار الى كفرطاب وشيزر ثم الى حماة وحمص فخرج من بقي بها فأمنهم ودخلها فصلى في البيعة وأخذ منها رأس يحيي بن زكريا واحرق الجامع ثم سار الى عرقة الخ . فهذه الراوية تفيد ان رأس يحيي كان في حمص ولعل نقفور نقله الى بعلبك ثم ظهر فيها على أثر الزلزلة التي حصلت فيها سنة ٤٣٤ كما تقدم او ان هذه الرواية لا أصل لها .

قال ابن الوردي في تتمة تاريخ ابي الفدا في حوادث سنة ٧٣٨ في هذه السنة في صفر توفي بدر الدين محمد بن ابراهيم بن الدقاق الدمشقي ناظر الوقف في حلب . وفي ايام نظره فتح الباب المسدود الذي في الجامع شرقي المحراب الكبير لأنه سمع ان بالمكان المذكور رأس زكريا النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم فارتاب في ذلك فأقدم على فتح الباب المذكور بعد ان نهي عن ذلك فوجد باباً عليه تأزير رخام ابيض ووجد في ذلك تابوت رخام ابيض فوقه رخامة بيضاء

مربعة فرفعت الرخامة عن التابوت فاذا فيها بعض جمجمة [1] فهرب الحاضرون هيبةً لها ثم رد التابوت وعليه غطاؤه الى موضعه وسد عليه الباب ووضعت خزانة المصحف العزيز على الباب وما انجح الناظر المذكور بعد هذه الحركة وابتلي بالصرع الى ان عض لسانه فقطعه ومات نسأل الله ان يلهمنا حسن الأدب اهـ ٠

توسيع تلك الخزانة الى حجرة كبيرة وضريح عظيم

وذلك في سنة ١١٢٠ وهو ما عليه الآن

جاء في تاريخنا (اعلام النبلاء) في حوادث سنة ١١١٩ في هذه السنة ولي حلب عبدي باشا ٠ وجاء في حوادث سنة ١١٢٠ قال قاضي حلب عبد الرحمن ابن مصطفى الكبيري الذي تولى القضاء فيها هذه السنة في آخر رسالة له ذكر فيها نبذة من تاريخ حلب أغلبها مما يتعلق بالجامع الكبير ٠ وفي زماننا هذا وهو زمان السلطان احمد خان بن السلطان محمد خان امر الوزير الأعظم الصدر علي باشا في زمان حكومة الفقير بتوسيع المرقد المقدس فشرعنا في تنفيذ أمره في اليوم الرابع من شعبان سنة عشرين ومائة والف وهدم الحائط الشرقي (أي شرقي المنبر) وهو محل المقام ووراء الصندوق الذي هو ستر جلاله من قديم الأيام إذ ظهر هذا الجرن بين الحائط المرئي والحائط القديم وهو من الرخام الأبيض فلما أخذنا في حمله فاح منه رائحة طيبة أزكى من المسك فحملناه بالتسليم ووضعناه في خزانة واحضر اكثر من ثلاثين شخصاً من حفاظ القرآن الكريم وصاروا يقرؤن عنده ويهللون ولازموا المكان ليلاً ونهاراً الى ان تم ذلك المقام ٠ ولما كان يوم الجمعة قبل العصر حادي عشر ذلك الشهر من السنة المرقومة اجتمعنا مع الوالي وهو الدستور المكرم حضرة عبدي باشا والعلماء والأعيان ورفعنا الجرن المبارك مع الوزير والعلماء والصلحاء ووضعناه في جرن أكبر منه موضوع فوق بناء مؤسس مرتفع عن الأرض ووضعنا فوقه من الرخام والتراب الذي كان معه من الأزمنة الماضية وغطيناه بالرخام والتراب والقراء يقرؤن القرآن

(١) هذا يؤيد ما جاء عن الهروي ان الموجود في هذا الصندوق هو بعض الرأس ٠

ويطلبون الرحمة والرضوان والحمد لله على ما انعم من هذه النعم الجليلة والبركة الجميلة التي لم تتيسر الا لآحاد من الناس ا ه باختصار وقال بعد ذلك وهو مما يجب ان لا نختصره . وصلاة على نبينا الأكمل وعلى صاحب هذا المقام الأجمل سيدنا ابي الحصور زكريا عليه وعلى نبينا أفضل التحية .

وفي ترجمة مفتي حلب علي بن اسد الله المتوفى سنة ١١٣ (ج ٦ ص ٤٥٨) وتولى افتاء الحنفية بحلب مدة خمس عشرة سنة الى ان مات وكان اذ ذاك متولياً على جامع بني أمية بحلب . وفي ايام توليته عليه امر بمرمات الجامع المذكور ومرمات بعض حيطانه فظهر من احد الحيطان لما قشروا عنه الكلس رائحة تفوق المسك والعنبر واذا فيه صندوق من المرمر مطبق ملحوم بالرصاص مكتوب عليه هذا عضو من أعضاء نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام فاتخذوا له هناك في ناحية القبلة في حجرة قبراً في مكانه الآن وحمل الصندوق اليه جميع العلماء والصالحين بالتعظيم والتبجيل والتوقير والتكبير وذلك سنة عشرين ومائة والف ا ه وفي تلك المدة كان مقيماً في حلب شاعر كبير من شعراء الأتراك يعرف بالنابي فنظم قصيدة غراء تركية في ٥٤ بيتاً وهي مذكورة في ديوانه المطبوع (ص٧٩و٨٠) ذكر فيها ظهور هذا الصندوق وبناء هذا الضريح ووضع هذا الصندوق فيه وما حصل وقتئذ ترجم لنا هذه القصيدة نثراً بعض فضلاء الأكراد العارفين باللغتين العربية والتركية الا بعض ابيات منها متعلقة بالمديح والدعاء للسلطان مما هو خارج عما نحن فيه وهي لا تخرج عما تقدم مما ذكرناه عن قاضي ومفتي حلب الا أنه قال ان ذلك كان في السابع عشر من شعبان من سنة ١١٢٠ ولا ادري ايهما اصح والخطب سهل .

وصف الحضرة النبوية الحاضر

وصف الحضرة النبوية زميلنا وصديقنا الشيخ كامل الغزي رحمه الله في تاريخه نهر الذهب (ج ٢ ص ٢٤٤) فاكتفينا به . قال : محلها بين العضادة العاشرة والحادية عشرة من الصف الأول (شرقي المحراب) في حجرة مربعة تبلغ ٤ اذرع في مثلها

تقريباً يصعد اليها من أرض القبلية بدرجة واحدة سقفها قبة لها على سطح الجامع كوات بشبكات من الحديد · وفي قاعدة القبة شبكة كالسقف مفتوحة من من النحاس بعيون مربعة تبلغ فتحة واحدتها ثلاثة قراريط في مثلها ترتفع عن أرض الحجرة نحو ثمانية اذرع وجدران الحجرة الثلاثة التي هي الغربي والشرقي والجنوبي المقابل وجه المصلي ظهارتها من أرض الحجرة الى الشبكة المذكورة مبنية بأجمل أنواع الخزف المعروف بالقاشاني وباب هذه الحجرة وهي الجهة الرابعة منها قنطرة مشادة عالية حجارتها سود وصفر محمولة على عمودين عظيمين (من الرخام الأصفر) وارتفاعها من ختمها الى ارض القبلية ثمانية اذرع في عرض اربعة اذرع وهذه القنطرة العظيمة مع العمودين المحمولة عليهما لها غلق يستوعبها من أرض الحجرة الى ختم القنطرة من نحاس اصفر مشبك ببعضه على شكل مربع وهو من رأس العمودين الى ارض الحجرة ذو مصراعين يفتح ويغلق وسعة عيون شبكاته قيراطان في مثلها · ومن رأس العمودين الى ختم القنطرة قطعة واحدة لا تفتح ولا تغلق وسعة عيون شبكاته قيراط واحد في مثله · وفي جانب كل من العمودين المذكورين لمعة ظهارتها من الخزف القاشاني المذكور مكتوب على زنار شبكة الباب شعر تركي لنابي الشاعر المشهور .

قال في نهر الذهب : أما صندوق الجرن الشريف فهو في وسط الحجرة من الخشب على صفة ضريح عليه كسوة من مخمل مزركش بالقصب الفضي مكتوب فيه بعض سورة مريم · وهذه الكسوة انعم بها المرحوم السلطان عبد العزيز خان سنة ١٢٩١ وكان قبلها كسوة سرقت قديمة بالية وضعت سنة ١٢٣٢ على أثر كسوة سرقت في السنة المذكورة · وهذه الكسوة التي هي قبل الكسوة الحاضرة ارسلت الي استانبول ووضعت هناك في محل الآثار القديمة · وعلى هذه الكسوة الجديدة فوق سنام الضريح عدة شالات ثمينة عجمية وهندية · (ثم قال) ويوجد هناك عشرة قناديل فضة صغار وقنديلان كبيران من الفضة وقنديل ذهب وشمعدان فضة وقمقم ومبخرة فضة وغير ذلك من البلور والسجادات والبقج والشالات . اهـ ·

ماقاله المؤرخون عن مقتل يحيي ومكان قبره وقبر أبيه زكريا عليهما السلام

في عرائس المجالس للثعلبي بعد كلام طويل بين فيه سبب مقتله · قتل وهو قائم يصلي في بيت المقدس في محراب داود وأخذ رأسه ·

وفي معجم البلدان في الكلام على دمشق · والمسجد الصغير الذي خلف جيرون يقال ان يحيى بن زكريا عليهما السلام قتل هناك ·

وفي الجزء الرابع من صبح الأعشى ص ٩٦ وقد ورد ان المسيح عليه السلام ينزل على المنارة الشرقية ويقال ان القبة التي فيها المحراب لم تزل معبداً لابتداء عمارتها والى آخر الوقت بناها الصابئة معبداً ثم صار الى اليونانيين فكانوا يعظمون فيها دينهم ثم انتقل الى اليهود فقتل يحيي بن زكريا عليه السلام ونصب رأسه على باب جيرون من أبوابه فأصابته بركته ثم صار الى النصارى فجعلتها كنيسة ثم افتتح المسلمون دمشق فاتخذوه جامعها وعلق رأس* الحسين عليه السلام عند قتله في المكان الذي علق عليه رأس يحيي بن زكريا الى ان جدده الوليد · ويقال ان رأس يحيي عليه السلام مدفون به · وبه مصحف عثمان الذي وجه به الى الشام ·

وقال في المعجم في الكلام على جامع دمشق (ص ٨٠) وبالجامع رأس يحيي بن زكريا عليه السلام وفيه في (ج ٥ ص ٢٩) في الكلام على سبسطية ان سبسطية بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان · وبها قبر زكريا ويحيى ابن زكريا عليهما السلام وجماعة من الأنبياء والصديقين وهي من أعمال نابلس ·

وفي مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ (ج ١ ص ١٨٨) قال احمد بن ابراهيم الغساني حدثنا ابي عن أبيه عن زيد بن واقد قال وكلني الوليد على العمال في بناء مسجد دمشق فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فلما كان الليل وافى والشموع تزهر بين يديه فنزل واذا كنيسة لطيفة ثلاثة اذرع في ثلاثة واذا فيها صندوق فاذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيي بن زكريا فأمر به الوليد فرد الى المكان · وقال اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من الأعمدة

فجعل عليه عمود مسفط الرأس وفيه (في ص ٢٢٠) قبر يحيى وزكريا • يقال انهما بسبسطية • وحكى ابن عساكر عن زيد بن واقد الخ ما تقدم وزاد بعد قوله وفي السفط رأس يحيى بن زكريا : مكتوباً عليه هذا رأس يحيي بن زكريا الخ ما تقدم ثم قال قال زيد بن واقد رأيت رأس يحيي بن زكريا وعليه البشرة والشعر على رأسه لم يتغير • وقال القاسم بن عثمان الجوعي سمعت الوليد بن مسلم وسئل أين بلغك رأس يحيي بن زكريا قال بلغني انه ثَمّ وأشار بيده نحو العمود المسفط الرابع من الركن الشرقي • وقال هشام ابن عمار حدثنا محمد بن شعيب قال دخلت مع شداد بن عبد الله من باب الدرج فقال لي : ترى ها هنا كتابة بالرومية قلت نعم • فصلى ركعتين وقال ها هنا رأس يحي بن زكريا • وروى القاسم الجُوعي عن الوليد بن مسلم انه سأل الأوزاعي • أين بلغك رأس يحي بن زكريا • قال في العمود الرابع المسفط اهـ •

ونحو ذلك في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (ج ٩ ص ١٥٦) وزاد فيه وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد ، قال حضرت رأس يحي بن زكريا وقد أخرج من الليطة القبلية الشرقية التي عند مجلس سجيلة فوضع تحت عمود الكاسة اهـ

وفي أوائل الرحلة القدسية للشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤٣ ثم سرنا فمررنا في الطريق على قرية سبسطية وبعضهم يقول باسطين بياء بعدها نون وهي فلسطين المشهورة وذكر الهروي في زياراته قال سبطين هي فلسطين بها بدن يحي بن زكريا عليهما السلام وقبر امه وقبر اليسع •

يلخص مما تقدم

ان مؤرخي حلب المتقدمين بعضهم يقول وهم الأكثر ان في جامعها رأس يحي والهروي منهم يقول قطعة من رأسه ولم يقل لنا احد منهم ان فيه زكريا أو رأسه وابن الوردي المتوفى بحلب سنة ٧٤٩ يقول لنا انه رأس زكريا عليه السلام • وثلاثة متعاصرون وهم مفتي حلب علي بن اسعد الله وقاضيها عبد الرحمن الكبيري

والشاعر نابي التركي الذين كانوا وقت توسيع الخزانة الى الحجرة الحاضرة سنة ١١٢٠ ﻫ يقولون انه رأس زكريا أو عضو من اعضائه والقلقشندي المصري مؤلف صبح الأعشى وياقوت الحموي المتوفى بحلب وابن فضل الله العمرى الدمشقي والحافظ ابن كثير الدمشقي يقولون ان الموجود بجامع دمشق هو رأس يحي عليه السلام

وهنا كما ترى قد تعارضت الأخبار فأيها الصحيح ويمكن الجمع بينها ان يقال ان قطعة من رأسه بجامع دمشق وقطعة منه بجامع حلب كما أفصح بذلك الهروي وكما قال ابن الوردي ان في الصندوق بعض جمجمة .

والتعارض باق بين مؤرخي حلب الأقدمين القائلين ان الموجود بحلب هو رأس يحي وبين المتأخرين منهم القائلين انه رأس زكريا . وعلى كل لا يخلو جامع حلب من اثر نبوي هو اما قطعة من رأس يحي او رأس ابيه زكريا عليهما السلام . ولا يوصلنا الى الصحة ولا يوقفنا على الحقيقة الا الكشف على الصندوق وقراءة ما كتب عليه بدقة . وهل هذا متيسر او متعسر ندع الجواب عنه لغيرنا .

وصاحب المعجم في الكلام على سبسطية يقول ان بها قبر يحي وزكريا عليهما السلام بدون تفرقة بين رأسهما وبدنهما . والنابلسي يقول لنا في رحلته ان بها بدن يحي ولم يذكر زكريا فبقي مكان جثمانه مجهولاً ولعله لعلمه ان في دمشق رأس يحي وهو مما لا خلاف فيه عند مؤرخي دمشق وأهاليها ذهب الى ان الموجود في سبسطية هو بدنه دفعاً للتعارض والله اعلم .

(حلب) محمد راغب الطباخ

ضرب الحوطة على جميع الغوطة

للحافظ محمد بن طولون الدمشقي الحنفي رحمه الله

نشرها نشراً جديداً وعلق عليها الدكتور محمد أسعد طلس

(القسم الاول)

فاتحة :

المخطوط الذي نقدمه اليوم لقراء العربية هو رسالة لطيفة للعالم المؤرخ ابن طولون الدمشقي ولهذه الرسالة شأن لما تضمنت من معلومات مهمة عن قرى الغوطة في القرن العاشر ، فانها تسرد اسماء تلك القرى ، وفيها ما هو مجهول في ايامنا ، كما ان منها ما لا نجده في غيرها من الرسائل والكتب التي بحثت — عرضاً — عن الغوطة وقراها ، على ان المؤلف ربما خلط بين قرى الغوطة وقري المرج كما لاحظ ذلك استاذنا محمد كرد علي بك في محاضرته عن الغوطة ، ولكن هذا لا يحط من قيمة الرسالة ولا يجعلنا نشك في علم ابن طولون وانما نعتقد انه كان في زمنه داخلاً في الغوطة فان للأراضي والبقاع تطورات وأعماراً كما لبني الانسان وللمدن ، فاذا عد ابن طولون قرية من الغوطة وهي اليوم من قرى المرج فما ينبغي لنا انتقاده[1] . على انه ربما ذكر بعض القرى وقال في آخر كلامه عنها : وانها من حساب قرى المرج ، كما سترى ذلك . ونحن في الذيل الذي سنعقب به على ما قال ابن طولون سنذكر بعض قرى المرج لقربها من الغوطة قرباً يجعل بعض الناس يعدونها منها . والرسالة التي ننشرها كان نشرها السيد حبيب الزيات في الخزانة الشرقية ج ١/٣٩ ولكنه لم يعلق عليها بل حذف منها الأسانيد وما نعرف

(١) أدخل ابن طولون في رسالته عن الغوطة سبع عشرة قرية من المرج وكان الأولى أن لا تدمج فيها وهي : بيت نايم ، البرية ، تل الشعير ، تل الذهب ، تل الكردي ، الجرباء ، حرستا ، القنيطرة ، حزرما ، حران ، الجديدة ، الدوير ، القصير ، تميسا ، الزعيزعية ، السويداء ، الرمادة ، عذراء . (المجمع العلمي العربي)

أحداً قبل ابن طولون كتب في الغوطة رسالة خاصة كما لا نعرف أحداً من المحدثين عنى بها على الرغم من مكانتها الكبرى في القديم والحديث اللهم إلا بحث أستاذنا الجليل محمد كرد علي بك الذي كان القاه في راديو الشرق . ثم القى ثلاث محاضرات في قاعة المجمع العلمي بدمشق كان لها أحسن الأثر في نفوس الشاميين لأنهم تعرفوا بمحاضراته هذه الى لمحة طيبة عن تاريخ الغوطة تلك البقعة الخصيبة التي ينعمون بخيراتها ويتفيأون ظلالها ، وممن عنى بالغوطة من المتأخرين المسيو دوسو فقد كتب عنها فصلاً مطولاً في كتابه طبوغرافية سورية التاريخية في القديم والعصور الوسطى . وممن عنى بها ايضاً المسيو تريس فقد كتب عنها مقالاً مطولاً درس فيه الري وأنظمته في الغوطة ونشره في مجلة الدراسات الاسلامية بباريس . وهناك معلومات منثورة في الكتب عن الغوطة رجعنا اليها في تصحيح مخطوطتنا التي ننشرها الآن

أما المراجع العربية التي رجعنا اليها فهي :

كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته طبع مطبعة بريل بليدن في سنة ١٨٩١

كتاب البلدان لابن الفقيه طبع مطبعة بريل بليدن في سنة ١٣٠٢

« تاريخ دمشق لابن عساكر نشره ولخصه عبد القادر بدران طبع في دمشق

« المسالك والممالك لابن خرداذبه طبع بمطبعة بريل بليدن في سنة ١٣٠٦

« معجم البلدان لياقوت الحموي

« منادمة الأطلال ومسامرة الخيال للشيخ عبد القادر بدران مصور بدائرة الأوقاف الاسلامية عن مخطوطة المكتبة التيمورية

رسالة الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون نشرت بعناية مكتبة القدسي والبدير بمطبعة الترقي سنة ١٣٤٨

رسالة المعزة فيما قيل في المزة لمحمد بن طولون نشرت بعناية مكتبة القدسي والبدير بمطبعة الترقي سنة ١٣٤٨

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مقالة الغوطة للأستاذ محمد كرد علي المجلد العاشر ج ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

وأما المراجع الأجنبية فهي :

كتاب جهان نما لكاتب چلبي التركي (بالتركية)

(تقويم سورية) (بالتركية)

Le Strange : Palestine under the Moslems London 1890
Sauvaire: Descriptions des Damas Journal Asiat 1894 I ,250 , 283 . II . 242 , 460 . 1895.I 269, 377. II 221, 409, 1896. I 185, 369

والمخطوط الذي ننشره هنا مأخوذ عن النسخة الفوطوغرافية المحفوظة بمكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق ورقمها (٢) وهي منقولة عن مكتبة جامعة ليدن

[Bibliothèque de l'Université de Leyde . M s . arabe ; 1862 Catal . Cadicum arabicorum II p. 10 N°814]

وها نحن اولاء ننشر في هذا العدد نص الرسالة وفي العدد الآتي ننشر التعليقات .

بسم الله الرحمن الرحيم

[١ظ] سبحان العظيم العليم المحيط علمه بكل قاصٍ وداني ، الباسط حلمه على كل خاطئٍ وجاني ، فمن عظم من خلقه فهو في قبضته وعظيم قدره ذليلٌ متواني ، هو الأول ماله ثاني ، وهو الآخر وكل ما سواه فاني ، العرش يقول سبحان من حمل عن الحملة أركاني ، والكرسي يقول سبحان من ثبت قوائمي وأحسن بنياني ، والسموات تقول سبحان من هذب بوحدانيته جميع سكاني ، والفلك يقول سبحان مدبري في دوراني ، والسحاب يقول سبحان من جعل بين السماء والأرض مكاني ، والريح يقول سبحان من أجراني ، والجبال تقول سبحان من أرساني ، والأرض تقول سبحان من على تيار الماء دحاني ، والأشجار تقول سبحان من يسمع جريان الماء في أغصاني ، والزهر يقول سبحان من فتق كمي وغير ألواني ، والفواكه تقول سبحان من أينع بين طعمي : هذا حامض وهذا حلو ومن ماء واحد سقاني ، والطير يقول سبحان من أطلق له بالحمد لساني ، والبعوض تقول سبحانٍ من يسمع حسَّ خفقان

أجنحتي عند طيراني ، والنمل تقول سبحان من يرزقني على ضعفي وفي الليل المظلم يراني ، والليل يقول سبحان من سترني والظلام غشاني ، والنهار يقول سبحان من أظهرني وبالنور كساني ، والجنة تقول سبحان من وعد المتقين بنعيمي وحوري وولداني ، والنار تقول سبحان من توعد المجرمين بعذابي ونيراني ، ومحمد ﷺ يقول سبحان من شفعني في أمتي وأرضاني صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة وسلاماً ينجيان من النيران . وبعد فهذا تعليق سميته « بضرب الحوطة على جميع الغوطة [1] » على حسب الامكان وبالله المستعان .

قال ابو عبد الله بن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة في ذكر دمشق : أما صفتها فانها من أحسن بلاد الشام مكاناً ، وأعدلها هواءً ، وأطيبها نشراً ، وأكثرها مياهاً ، وأغزرها فواكه ، وأوفرها مالاً ، وأكثرها جنداً ولها ناحية تعرف بالغوطة طولها مرحلتان في عرض مرحلة وتشتمل هذه الغوطة على خمسة آلاف بستان وثلاثمائة وخمسة وأربعين بستاناً وعلى خمسمائة وخمسين كرماً وهي من شرقي دمشق وشماليها بها ضياع [2] كالمدن مثل المزة وداريا وحرستا ودمر وبلاس وبيت لاها وعقربا وبها كلها جوامع انتهى . قلت أخبرنا أبو البقاء محمد بن العماد العمري بقراءتي عليه أنبأنا الشهاب أحمد بن علي بن حجي أنبأنا أبو الفرج عبد لرحمن بن احمد الغزي وأبو المعالي عبد الله ابن عمر الأزهري بقراءتي عليهما وأنبأنا به ابو المفاخر عبد القادر بن محمد الدمشقي قراءة عليه قال هو وشيخنا الأول أنبأنا الزين عبد الرحمن [٢و] بن خليل الأذرعي سماعاً عليه متفرقين أنبأنا الجمال عبد الله بن محمد الأزهري أنبأنا ابو عبد الله محمد بن محمد الفارقي وقال الغزي أنبأنا القطب عبد الكريم بن عبد النور الحلبي قالا أنبأنا ابو بكر محمد بن اسماعيل بن الأنماطي أنبأنا ابو محمد هبة الله بن الخضر بن طاوس أنبأنا ابو الفضائل ناصر بن محمود القرشي انبأنا ابو الحسن علي بن احمد التميمي المالكي انبأنا ابو الحسن علي بن محمد الربعي المالكي انبأنا تمام بن محمد حدثنا القاضي ابو الحسن احمد بن سليمان

ابن حذلم حدثنا ابو زرعة حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة عن ابن جابر عن زيد بن ارطاة عن جبير بن نفير عن ابي الدرداء قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: 'فسطاط' المسلمين يوم الملحمة بالغوطة الى جانب مدينة يقال لها دمشق من مدائن الشام . وبه الى تمّام انبأنا ابو بكر احمد بن عبد الله القرشي وابو بكر محمد بن ابراهيم البزاز قال حدثنا ابو قعين اسماعيل بن محمد العذري حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنا مسلمة بن علي حدثنا ابو سعيد الأسدي حدثنا سليم بن عامر عن ابي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية قوله تعالى: [وآويناهما الى ربوة ذات قرارٍ ومعين] . ثم قال هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : هي بالشام بأرضٍ يقال لها الغوطة بها مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام . وبه إليه حدثنا أبو الحارث احمد بن محمد بن عمار عن الوليد ابن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس أنه قال : وُلد ابراهيم عليه السلام بغوطة دمشق في قرية يقال لها بَرْزَةُ في جبل يقال له قاسيون . وبه الى الربعي أنبأنا ابو محمد عبد الله بن احمد العيسى أنبأنا ابو الميمون عبد الرحمن بن عبد الله البجلي حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد حدثنا ابو البيان الحكم بن نافع حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير عن ابيه عن عوف [1] بن مالك قال : هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيسيرون اليكم على ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفاً ، فُسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها دمشق . وبه اليه أنبأنا ابو محمد عبد الرحمن بن عثمان حدثنا ابو الحسن ابن حبيب حدثنا ابو بكر بن الأشعث حدثنا ابو توبة حدثنا ابن المهاجر عن ابي حليس ، قال : أشرف عيسى بن مريم عليه السلام على الغوطة فقال : ياغوطة إن عجز الغني ان يجمع منك كنزاً لم يعجز المسكين ان يشبع

(١) في الخزانة [عون]

منك خبزاً . قلت الحاصل أن الغوطة مدينتها دمشق الكبرى وقد أفرد لها تاريخاً معظماً الحافظ ابو الحسن بن عساكر ودونها القرى وهاك اسماء ما وقعت عليه منها مرتباً لها على حروف الهجاء .

أرْزُونا [٣] — وهي قرية تحت القابون التحتاني وهي متوسطة لها جامع ومأذنة وشربها من نهر ثورا وهي أملاك لناس مختلفين وقع بها تحديث بأجزاء وخرج منها جماعة من العلماء وأهل الحديث .

الأفتريس — وهي قرية بقرب جسرين وهي متوسطة وشربها من نهر داعية .

[٢ ظ] أرزَةُ* — وهي قرية أدركت بعض]] بيوت بها والى الآن بها بيت بجنينة وأدركت جامعها بمأذنة صومعة عند قبور الشهداء ولها حكر [٤] ديوان الجيش وشربها من نهر تورا .

البوَيضةُ — وهي بلدة كبيرة قبلي دمشق بجامع ومأذنة وكان لنا بها عشر .

البحدَلية [٥] — وهي قرية جامعة تحت يلدا وبها جامع وهي وقف على بيمارستان الصالحية القيمري .

بيت رانس* [٥] — وهي قرية تحت مدينة دمشق من جهة القبلي .

بيت سحم [٦] — وهي قرية بالقرب من عقربا وبها قطع [٤] وقف على جماعة الحنابلة .

بيت الآلهة — هي حارة من دمشق شرقيها وبها جامع مبارك أدركت خطيبه صاحبنا الفاضل بدر الدين حسن البيت ليدي الحنبلي والآن قد خرب وللناس فيه اعتقاد كثير وعليها بساتين وأراضي كثيرة وقع بها حديث كثير وآخر من حدث بها شيخنا المحيوي النعيمي وخرج منها جماعة من أهل الحديث [٧] .

بيت أبياتٍ* — حارة كانت غربي الصالحية وقد خربت الحارة ولم يبق غير مسجد والطاحون ثم خرب المسجد ووقع بها حديث كثير وفيها كان جماعة من أهل الحديث [٨] .

بَرزَة — وهي قرية شرقي الصالحية في الجبل بها مقام ابراهيم يقال إنه ولد فيه وقيل بل اختبأ فيه وقيل بل صلى فيه وقد أفردت لما ورد فيه

جزء [٩] وماؤها من أحسن مياه دمشق يأتي من وادي الجرن [١٠] « لعلها حرنة (المجمع العلمي العربي) » واليها ينسب نوع من التين الشتوي هو أجود جنس منه ونوع من السفرجل هو من أجود انواعه وقع بها حديث كثير من جماعة من الحفاظ وغيرهم وقد حدثتُ بها مراراً وكان بها من له سماع فيه وأمامة بجامعها وله مأذنة [١١] .

بالا — وهي قرية تحت المنيحة وهي قرية حسنة كثيرة المُغَل وفيها حصة وقف على الجوزية وقف على الحنابلة إما ربع أو نحوه [١٢] .

بَرْتايا* : وهي قرية خراب فوق سقبا وقف [١٣] (هي أرض ضمت الى عربيل · المجمع العلمي العربي) ·

بيت نايم* — وهي قرية تحت جسرين كبيرة وقف وهي من جملة حساب المرج وهي أول قراه [١٤] .

بيت سوا — وهي قرية متوسطة وقع بها تحديث ببعض الأجزاء [١٥] .

البرُبةُ * — وهي قرية في المرج الشرقي وهي حصص غالبها وقف ومنها حصة موقوفة على جامع الحنابلة .

تل الشعير * — وهي قرية تحت البجدلية خربة وقف على المدرسة القيمرية [١٦] .

تل الذهب* — وهي كانت قرية وهي الآن مزرعة ملاصقة لبيت نايم وأهلها يزرعونها وهي وقف وقع بها حديث يسير [١٧] .

تل كردي — وهي قرية من قرى المرج لم اعرف حالها [١٨] .

جَرَمانا — وهي قرية قبلي دمشق وأهلها تيامنة وهذا عجيب من كونهم في هذه [القرية من] الغوطة فان اهلها جميعهم من أهل السنة [١٩] .

جَوْبَر — وهي قرية شرقي مدينة دمشق لليهود وبها ثم جماعة من المسلمين وبها مسجد يقال له مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقع بها حديث كثير ومنها جماعة من أهل الحديث [٢٠] .

[٣ و] جسرين — وهي قرية تحت سقبا][وكانت بلدة كبيرة إلا أنها تلاشى أمرها وهي وقف وشربها من نهر داعية وقع بها حديث في فوائد الرازي [٢١] .

جَرْبا — وهي قرية متوسطة من قرى المرج وهي في اقطاع ثالث مقدمي الألوف بدمشق وقع بها تحديث الأجزاء[٢٢] ·

حَزّة — وهي بلدة صغيرة تحت زملكا لها مسجد وشربها من عين الرشيدية[٢٣] ·

حمورية — وهي قرية شمالي سقبا متوسطة حسنة بها جامع يقال إنه عمري وهي وقف على أولاد السلطان الملك الظاهر وفيها املاك مستخرجة في الخراج[٢٤] ·

حُرْدان* — وهي قرية تحت سقبا أيضاً خربت كان لها حديث لجماعة من اهل الحديث أفرد لها الحافظ ابو الحسن بن عساكر جزءً ثم أفرد لها شيخنا المحدث أبو المحاسن بن عبد الهادي جزءً آخر[٢٥] ·

حرستا الزّيتون[٢٦] — وهي قرية كبيرة جامعة وهي في اقطاع النيابة كانت والآن صارت وقف التكية[٢٧] قال شيخنا ابو المحاسن وهي قرية شر وفسق معروفة بذلك ومن المذكور بين الناس إنها اول ما يخسف بها في الدنيا وكانت قديماً قرية حديث وشربها من نهر يزيد وتورا واليها ينسب التفاح النبطي وقع بها حديث كثير خرّجت لها جزئين وخرج منها جماعة من أهل العلم انتهى · قلت منهم الإمام محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة رضي الله عنهما ·

حرستا القنطرة[٢٦] — وهي قرية قبلية صغيرة ولعلها من حساب المرج ·

حزْرَما[٢٨] : وهي قرية من قرى المرج وثلثها وقف على دار الحديث الأشرفية[٢٩] بدمشق وقع بها حديث كثير قال المحدث ابو المحاسن[٣٠] وقد أفردنا لها جزء ·

حَرّان — وتضاف الى العوامد فيقال لها حران العواميد وهي قرية متوسطة من قري المرج[٣١] ·

الجديدة * — بالحاء المهملة والناس يقولون بالمعجمة تحت وهي قرية متوسطة من قرى المرج وهي في اقطاع النيابة[٣٢] ·

الحديثة[٣٢] — وهي قرية صغيرة تحت دمشق وغالبها يتكلم[٣٣] عليها

المولى الخواجا زين الدين عبد الغني بن اُلمزْاَق [٢٤] وقع بهـا حديث وحدث فيها بعدة أجزاء .

الخيارة — وهي صغيرة من قرى المرج [٢٥] .

دارَيا [٢٦] — بلدة كبيرة جيدة عذية [١] بها جامع وهي من جملة بلاد السلطنة [٢٧] وبها اراضي وقف نور الدين الشهيد على طلبة العلم والصوفية الفقراء وبها قبر ابي سليمان الداراني واليها ينسب البطيخ الجيد وقع بهـا حديث كثير وخرج منها جماعة كثيرون من أهل العلم قال شيخنا ابو المحاسن وقد أفردنا لها مصنفاً ولم أقف عليه فأفردت لها جزءً لخصته من تاريخها وزدت عليه .

دَقاينة ☆ — وهي قرية صغيرة تحت أرْزونا ولها جامع وعليها كروم وشربها من نهر تورا [٢٨] .

دُومَةُ [٢٩] — وهي قرية كبيرة جامعة شرقي حرستا وهي من أُمهات القرى من اقطاع أمير كبير [٣٠] وشربها من نهر تورا وقع بها حديث [٣ ظ] وخرج منها جماعة من المحدثين والعلماء منهم الدومي المشهور .

الدَّوير☆ — يقال لها دير ابن عصرون وهي قرية صغيرة في لحف الجبل ونصفها أو نحوه وقف الحنابلة من جملة وقف الجوزية [٤١] .

الرَّبوة [٤٢] — غربي [٤٣] في فم الوادي فيها بيوت ودكاكين وحمام ويقال انها التي أوى اليها عيسى وأمه وهي الآن مكان فرجة ويجتمع فيها على غير التقوى وقد خربت في أيامنا عدة مرار وعمرت وقع بها حديث وسماع في عدة اجزاء وأفرد لهـا الحافظ الشمس بن ناصر الدين جزءً وتبعته في آخر ابسط منه [٤٤] .

زَملكا — بلدة كبيرة جامعة بها جامع وحمام وخلق كثير وهي من أُمهات الغوطة وشربها من نهر ثورا وبها موضع يقال إنه مزار ، وقع بها حديث كثير وخرج منها جماعة من المحدثين والعلماء وخطيبها كان بعض ولد ولد شيخ الاسلام ابي عمر وله سماع كثير واستمر أولاده بها الآن [٤٥] .

(١) عذية من عذا البلد طاب هواءه وينطقون بها اهدنا بالدال عدية (المجمع العلمي العربي)

زبدين — وهي قرية في آخر الغوطة من أقطاع النيابة ويزرع فيها البطيخ كثيراً ووقع فيها تحديث ببعض الأجزاء (٤٦)

الزُعيزِعية * — وهي قرية من قرى المرج وقع بها تحديث ببعض الأجزاء (٤٧).

السوَبداء * — وهي قرية من قرى المرج قرب البحرة (٤٨).

سقبا — وهي بلدة كبيرة جامعة وبها جامع وعدة مساجد وحمام وهي أملاك لأربابها وغيرهم ومنها يستحسن بزر الخيار وشربها من نهر داعية وقع بها حديث كثير وخرج منها جماعة من أهله قال شيخنا ابو المحاسن ولأهلها سماع وقد أفردت لها جزء (٤٩).

الشجرة * — وهي كانت قرية خربة وهي من جملة صدقات الحنابلة (٥٠).

الصالحية * (٥١) — قال شيخنا ابوالمحاسن وهي أول قرى الغوطة وأم البلاد وعروس الشام يصلح ان تكون مدينة بسفح قاسيون أول من وضعها المقادسة فإنهم لما هاجروا من الأرض المقدسة الى دمشق نزلوا مسجد ابي صالح شرقي دمشق فاستوخموا تلك المحلة ومات منهم جماعة كثيرون في مدة يسيرة فصعدوا الى هذا الجبل وبنوا به الدير المعروف بهم وبهم سميت الصالحية لأنهم كانوا من الصالحين الكبار وكان منهم الشيخ احمد والد الشيخ ابي عمر، والشيخ ابو عمر، والشيخ موفق الدين، والحافظ عبد الغني، والحافظ الضياء، والحافظ العماد، والإمام عبد الهادي، وأشباه هؤلاء وكلهم أقارب ثم اتسع البناء وبنى لهم الشيخ ابو عمر سبع ميات : المدرسة، والمسجد غربيها، والميضأة، والمصنع، والمغربلة، والمغسل، والمسقاة، انتهى. وقد أفردت لها تاريخاً.

صنعاء — قال شيخنا المحيوي النعيمي في مسودة][[٤ و] تاريخه وهي قرية خربت وبقي مزارعها على نهر الخلخال بالقرب من المنيبع خرج منها جماعة من المحدثين نحو عشرة انتهى (٥٢).

الصمادَة — ويقال لها الرمادة وهي قرية بقرب عذراء خربت وهي وقف من جملة صدقات الحنابلة (٥٣)

عينُ ثَرْما — وهي قرية جامعة شرقي دمشق وبها جامع وحمام ووقع بها حديث وكان لبعض أهلها سماع ببعض الأجزاء وغالب الوادي التحتاني مع اهلها وشربها من نهر ثورا وأما الوادي فشرب بعضه من نهر داعية وبعضه من بردى (٥٤).

عِرْبيل — ويقال لها عِرْبين وهي قرية جامعة وشربها من نهر ثورا واليها ينسب العنب البلدي واللوز وقع بها حديث كثير وخرج منها جماعة من أهل الحديث ولهم فيه سماع (٥٥).

عَذْرا* — وهي قرية شرقي دوما وهي في أقطاع النيابة كانت والآن صارت وقفاً على التكية وهي بلدة كبيرة بها كان قتل حجر وأصحابه وشربها من نهر ثورا واليها ينسب البطيخ وقع بها تحديث يسير (٥٦).

عَقرَبا — وهي قرية شرقي بلدا كبيرة وهي من جملة اقطاع النيابة واليها ينسب القماش العقرباني وقع بها حديث وخرج منها محدثون (٥٧).

قبر الست — وهي قرية قبلي دمشق يقال أن زينب بنت علي مدفونة فيها وهي بلدة جامعة وللناس ايام يخرجون اليها يحتجون بالزيارة ويتنزهون ووقع بها حديث يسير وقد أفردت لها تعليقاً (٥٨).

قرية سَيدي مُدرِك * — بالقرب منها وفي كونه هناك خلاف (٥٩).

القابون الفوقاني — وهي قرية كبيرة تحت برزة بها جامع وعدة مساجد وحمام وسوق وغالب اهلها تركمان وبها رؤساء واعيان وشربها من نهر يزيد وقع بها حديث (٦٠).

القابون التحتاني — وهي بلدة كبيرة بها جامع وعدة مساجد وحمام وسوق وبها (٦١) تركمان وحوارنة وغيرهما وبها يعمل خميس البيض النجس الخبيث وقد أفردت له تعليقاً وشربها من نهر يزيد واليها ينسب الخيار الجيد وقع بها حديث وخرج منها جماعة من العلماء والصلحاء.

القصير *(٦٢) — ويقال قصير القوافل وهي قرية متوسطة على طريق المارة وهي في اقطاع رابع مقدمي الألوف بدمشق ·

القصور* — وهي بلدة غربي كفرسوسية وقدخربت وهي الى الآن خراب (٦٣)

كفرسوسية — وهي بلدة تحت المزة بها جامع وحمام وهي بلدة جامعة وبها معصرة للزيت لأن بها زيتون كثير ووقع فيها حديث وخرج منها محدثون منهم شيخنا الشمس الكفرسوسي الشافعي ·

[٤ظ] كفر بطها — ويقال لها كفر بطنا وهي قرية جامعة بها جامع وحمام ودكاكين ويقال إنه كان بها علماء وسادات ورؤساء وتجار وهي أملاك متفرقة وبها عدة مساجد وشربها من نهر داعية ووقع بها حديث كثير وخرج منها جماعة من الأئمة المحدثين بل الحفاظ منهم الحافظ شمس الدين الذهبي وولده المحدث ابوهريرة وغيرهما (٦٤) ·

اللقيشا * — ويقال اللقيسا بالسين وهي قرية من أشهر قرى المرج (٦٥) ·

المحمدية — عند جسرين وهي قرية صغيرة من قرى المرج كانت خربة والآن عمرت (٦٦) ·

المنيحة — وهي قرية تحت دمشق جامعة ولها جامع ولي خطابته في هذه الايام صاحبنا القطب بن الصفوري الشافعي قال شيخنا ابو المحاسن ويقال إن بها قبر سعد بن عبادة وليس كذلك انتهى · وقد أفردت له جزءً وهذه الأيام يذهب الناس اليها للزيارة والتنزه على عاداتهم وبها قطع وقف على الحنابلة تعرف بالجوزيات وقف المدرسة الجوزية وقع فيها تحديث بعدة أجزاء وخرج منها محدثون منهم المنيحي (٦٧) المشهور ·

مسجد القدم — وهي قرية قبلي الصبيبات جامعة بها جامع وهي عذبة من جملة بلاد السلطنة لأناس متفرقين قال شيخنا ابو المحاسن ويقال إن قدم موسى فيها وذكر بعضهم أن فيها قدم النبي ﷺ وهو كذب انتهى وبالقرب منها الكثيب وقد أفردت له مؤلفاً (٦٨) ·

المِزّة — وهي قرية في سفح الجبل من الغرب كبيرة وبها عدة جوامع

ومساجد وحمامات ودكاكين وهي قديمة قال السيد كمال الدين بن حمزة عندي لها تاريخ وتقصدته فلم أظفر به فأفردت لها جزءً وكانت قد أقطعت لبعض ولد أسامة بن زيد ووقع بها تحديث وخرج منها محدثون منهم الحافظ جمال الدين المزي وولده وغيرهما (٦٩) .

مَقنية * (٧٠) — والصواب قينية وهي قرية خربت خلف ميدان الحصا قال الأسدي في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة في ترجمة محمد بن هارون من ولد أنس بن مالك الأنصاري الدمشقي من سكان قرية القينية عربي المصلى انتهى وقال غيره : ابو علي محمد بن هارون الأنصاري الدمشقي من سكان قرية قينية بظاهر باب الجابية مشهورة انتهى .

مُقرا * — وهي (٧١) كانت قرية فخربت شرقي الصالحية أدركت فيها السبع قاعات والآن باقي بها مسجد ومأذنة عند طاحونها على نهر ثورا غربي الصالحية .

النيرب — غربي (٧٢) الصالحية كان له اسم خاص وبه بيوت وبساتين وهو الآن مضاف الى اسم الصالحية وله جامع وحمام وقد خرب ووقع بها سماع حديث كثيراً أفردت له جزءً قال الحافظ ابن ناصر الدين في مسودة توضيحه والنيرب من قرى الغوطة وهي قرية من محاسن قرى دمشق من إقليم بيت لهيا كثيرة المياه والبساتين وبها جامع حسن تقام فيه ‖ [٥و] الجمعة ويقال في شرقيه قبر حنة أم مريم عليها السلام قال ابن شداد وليست مريم بنت عمران ولها حكاية وفي تاريخ دمشق لابن عساكر أن الخضر ينتاب هذا المسجد ويصلي فيه ويروى أن عيسى عليه السلام كان فيه انتهى .

يعقوبا — وهي قرية صغيرة غربي حَرَّة وشربها من نهر تورا وقع بها تحديث ببعض الأجزاء (٧٣) .

بلدا — وهي قرية قبلي المدينة بالقرب منها جامعة وهي بلدة حسنة ووقع بها تحديث وخرج منها جماعة من المحدثين منهم اليلداني الأول ومنهم شيخ شيخنا ابي المحاسن هو شرف الدين اليلداني الطبيب (٧٤) .

يتبع : م . أسعد طلس

مخطوطات ومطبوعات

الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة

طبع سنة ١٣٥٦ هـ في المطبعة الاقتصادية بالرباط من بلاد المغرب الأقصى مؤلفه من كبار اعيان الشيوخ في بلاد المغرب وله باع طويل في الفقه والأدب والتاريخ وهو الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن بن زيدان نقيب الأسرة المالكة ومؤلف كتاب النهضة العلمية في الدولة العلوية وكتاب العز والصولة في نظام الدولة وغيرهما من مؤلفاته التي وردت اسماؤها في كتابه الدرر هذا بمناسبة عزوه اليها ونقله عنها وقد عني بكتابه هذا أيما عناية وهو يشتمل على ثلاثة عشر مقالاً في ٢٢٦ صفحة ضمنها تاريخ ملوك الدولة العلوية بالمغرب وعلى مقالات في تقريظ الكتاب وختمه بست فهارس للموضوعات والأعلام والصور ونوادر الكتب وغيرها

والملوك المنوه بمآثرهم في هذا الكتاب هم الذين قدم جدهم الحسن الداخل من الحجاز في المائة السابعة للهجرة — كما في الجزء الرابع من كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى وكانت إقامتهم في سلجماسة الى أن بويع فيها منهم الشريف بن المولى علي الشريف المثاث سنة ١٠٤١ هـ ثم بويع ولده محمد الشريف سنة ١٠٦٩ ثم بويع سنة ١٠٧٥ اخوه الرشيد الذي تبوأ عرش الملك بفاس فابتدأ صاحب الدرر كتابه به اذ عده اول الملوك العلويين وما قبله عهد تأسيس وإنشاء ثم تتابع بعده اثنا عشر الى زمن السلطان لهذا العهد مولاي محمد بن يوسف وفي الكتاب ثمان وأربعون صورة تريك اولئك الملوك مع نماذج من خطوطهم وتواقيعهم ورسائلهم ومراسيمهم ووثائق أوقافهم كما تريك نماذج من قصورهم وآثار عمرانهم ويذكر المؤلف ما شيدوه من مدارس ومساجد ومزارات وحصون ومعاقل ودور سلاح وحدائق وقصور وجداول وجسور وملاجئ ومدن وما الى ذلك من معالم الحضارة وشواهد العمران والمؤلف تارة يسجع وكثيراً ما ينثر وقد أورد من الشعر ما زاد على سبعمائة بيت منها ما هو من نظمه ومعظمها لغيره من معاصرين ومتقدمين •

عبد القادر المبارك [1]

---

(١) كانت هذه القطعة آخر ما كتب الأستاذ قبل وفاته رحمه الله وقد كلف المجمع ولد الأستاذ السيد محمد المبارك أن ينقلها من المسودات التي تركها •

نظام جديد وحياة جديدة

الأداة الحكومية

تأليف الأستاذين : ابراهيم مذكور ومريت غالي

الطبعة الثانية ١٩٤٥

الكتاب يقع في ثلاث مئة وثماني وثلاثين صفحة ، اخرجته دار الفصول والنشر بالقاهرة . واذا كان الموضوع « الأداة الحكومية » موضوعاً جليلاً ، فان المؤلفين الفاضلين وفقا توفيقاً كبيراً في اختيار الأبحاث وتنسيقها ، وعرضها وتبويبها . فقد وطأا لموضوعها بمقدمة عرضا فيها ادواء الأمة ومشاكلها . فكان مما قالاه :

« ... وكيف نقبل من وزير او مستوزر ان يكون متشائماً ، وشأنه ان يخطو بنا دائماً الى الأمام ! وكيف نقبل الاستسلام الى اليأس ممن بيدهم مقاليد الامة ، اللهم الاّ ان كانوا يحسون انهم لا يقوون على عمل ، وليتهم يصرحون بهذا فيفسحوا المجال لمن هم أرغب في العمل منهم ، ولسنا مبالغين ان قلنا : ان روح التشاؤم هذه لم تعظم في اعيننا ولم تتجسم امامنا الاّ على ايدي الرجال ذوي الماضي ، ومن ساهموا في تطور هذا البلد ربع قرن او يزيد ... »

« وقد يكون للشيوخ عذرهم في تشاؤمهم ، ولكن الأمر لم يقف عندهم بل جاوزهم الى الشبان الذين هم معقد الأمل ومحط الرجاء ، فهم بدورهم متشائمون وغالون في تشاؤمهم أحياناً . فيعلمون ان المثل العليا التي ملئت بها رؤوسهم في الدروس والمدرسة لا وجود لها في الخارج ، وان كل من سبقوهم انما سارعوا الى حظهم ونصيبهم ولم يفكروا الاّ في انفسهم ، فجدير بهم ان يضعوا المصلحة العامة جانباً ويتجهوا نحو نفعهم الشخصي .... »

« ... ومن المغالطة ان ننكر انا تخبطنا كثيراً اثناء العشرين سنة الأخيرة ، فأقدمنا على مشروعات خطيرة قبل درسها . وهدمنا مؤسسات صالحة لأنها تمت الى شخص او حزب معاد ، وابحنا اليوم ما حرمناه بالأمس ، ولم تكن لنا سياسة

واضحة لا في هدم ولا في بناء، وفي هذا التخبط ما يضعف ثقة الكثيرين ويدفع الى القول بأنا لم نتهيأ بعد للاضطلاع بأعبائنا. ويظهر ان الخصومات السياسية والخلافات الحزبية بالغت في هذا وزادته سوءاً وقبحاً، اذ ليس منا معصوم، والقادة والزعماء في البلاد الأخرى يخطئون ويصيبون، والفارق بيننا وبينهم ان أولئك يخطئون فيتداركون خطأهم، في حين انا اذا زل أحدنا زلة اتخذها خصومه السياسيون فرصة للتشهير به والتحامل عليه. وربما دفعتنا الخصومة الى ان نرمي الناس بما ليس فيهم، ونشوه الصالح ونقبح الحسن.»

«... ومما يؤسف له ان الأمور التي حاولناها لم تنجح النجاح المطلوب، فلم نقم الدليل على ان التغيير الذي دعونا اليه، والاستقلال الذي نادينا به، جاء مصدر خير وبركة شاملة كما كنا نعلن للناس من قبل».

«... ولم نستفد من تجربة جربناها، ولم نتعظ باخفاق وقع فيه غيرنا، ومضى علينا نحو عشرين سنة وامورنا موكولة الينا دون ان يكون لهذا التمرين أثر عملي يذكر، اللهم الا انه ابان عن عيوب مستورة وكشف عن نقائص كانت خفية»

وبعد ان يعدد المؤلفان من العيوب ما أشرنا الى بعضه، يعودان فيقولان:

«كل هذا نسلم به، ونسلم بأن للمتشائمين عذرهم، ولكنا نعتقد ان هذا التشاؤم اعدى عدو لأمة ناهضة. واذا قلنا تشاؤم فمعنى هذا انا نقضي على النهوض والاصلاح، ونسد باب الأمل في الوطن والرجاء في المستقبل، ونمحو روح التفاني والتضحية التي بدونها لا تقوم الامم ولا تحيى الدول ...»

ويشرح الاستاذان كثيراً من أدواء الأمة ومشاكلها، من سياسية واقتصادية وصحية. ويتجهان أخيراً الى الاداة الحكومية، يريانها الوسيلة الأولى لتحقيق الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية. فيذكران من معايبها انها اداة أبلتها الأيام، وقد تطور الزمن ولم تتطور. ونهض المصريون فلم تجارهم هذه الأداة في نهوضهم. فهي بقية العصور الماضية: تعقد العمل، وتسيء الى الجماهير. وسيرها بطيء، لا يتمشى وسرعة السير في القرن العشرين. ونظرتها ضيقة محدودة، لا تتفق وتشعب الحياة

التي نعيش فيها ، فحاجتها الى التجديد والاصلاح ، لا تقل عن حاجة اي مظهر من مظاهر حياتنا العامة .

ثم يرفع المؤلفان صوتهما في جرأة وفي حق ، فيقولان قولة خليق بأن يتدبرها كل منا : « ان سير الأعمال الحكومية قد وصل الى حد ان لم نغيره ونبدله بأنفسنا ، فأخشى ما نخشاه ان نسلم بتبديله ولو على ايدي غيرنا » .

« وعبثاً نحاول ان نتحدث عن نهوض اقتصادي ، او تقدم اجتماعي ، ان لم نأخذ أنفسنا بوسائل ناجعة ، ونظم سديدة لتنفيذ ذلك ، وان لم نتخير لمشروعاتنا الصغيرة والكبيرة رجالاً يضطلعون بها على أكمل وجه . وقد جاءت الحياة النيابية على حداثة عهدها ، فزادت الأداة الحكومية تعقيداً ، وملأت جوها بلبلة واضطراباً ، واصبحت الفوضى تتهددنا من كل جانب ان عن طريق السياسة ، او الادارة ، فأبى السياسيون الا ان يتدخلوا في كل شيء ، ويقلبوا كل وضع ، وينقضوا كل مبدأ ، وتهاون الاداريون في واجباتهم اعتماداً على حظوة ، وعدوا على حقوق غيرهم باسم المحسوبية » .

هذه مقاطع تخيرناها من هذه المقدمة الممتعة ، للدلالة على قيمة الكتاب وطريقته ، وعلى بيانه وأسلوبه ، ثم لانطباق كثير مما قيل فيها ، بل لانطباقه كله ، علينا أيضاً .

ويخرجان من هذه المقدمة ، الى كلمة وجيزة عن « الاداة الحكومية » ، ثم الى الباب الأول في « الرقابة والتوجيه » وفيه بحث عن النظام الملكي النيابي والدستور ، والتربية القومية : وعن البرلمان ، والانتخاب ، والحزبية ، وتكوين البرلمان ، والانتاج البرلماني ، وعن الوزارة ومهمة الوزير ، ورئيس الحكومة ومجلس الوزراء ، وعن مجلس الدولة ، والقضاء الاداري ، واعداد التشريع ، والافتاء .

ثم الباب الثاني في « العمل والتنفيذ » وفيه الخدمات العامة ، وتوزيعها والاشراف عليها ، والانتاج الاداري ، وتفرعاته ، والموظفون ، وأنظمتهم وأحوالهم ، والقضاء وتوحيده ، واستقلاله ، وتنظيمه .

ويطول بنا نفس الكلام ، ان نحن رحنا نفصل هذا الذي اجملناه ، وهو تفصيل — اذا كان — فانه لا يغني عن قراءة هذا السفر الجليل ومدارسته . بقي أن نتساءل كيف يحقق هذا الاصلاح ، وكيف تطهر الاداة الحكومية من مفاسدها وأدرانها ؟

هذا ما لم يشر اليه المؤلفان ، الاّ اشارة خاطفة — فيما أذكر — جاءت في الصفحة الأولى من التمهيد وهي : ويعنينا ان نسرد هنا عبارة كثيراً ما سمعناها وهي : « كل هذا كلام جيد ومقترحات يقرها الجميع ، ولكن متى التنفيذ ومن أين يجيء ؟ — »

« وفي رأينا ان وسيلة التنفيذ الأولى تكوين رأي عام قوي يقظ حول مبادئ صريحة ومقترحات واضحة ، وهذا ما رجونا ان يساهم فيه هذا البحث بنصيب . »

اني أسمح لنفسي ان اقول ، بعد ان خبرت الجهاز الحكومي عشرات من السنوات ، في مختلف من الحالات : ان المؤلفين الكريمين ، اذا كانا وفقا في وصف المرض وشرح اعراضه كل التوفيق ؛ فما احسب انهما وفقا في وصف الدواء ، فتكوين « راى عام » عمل شاق وطريق وعر طويل ، ومن يكفل هذا الرأي العام ان لا يفسد عوداً ، كما فسدنا نحن بدءاً ؟

أليس في ما وصفه المؤلفان من تهافت الأمة : شيباً وشباناً على المنافع الخاصة ، ما يقل معه الرجاء في تكوين هذا الرأي العام ، وهل يكوّن هذا « الرأي العام » من لا يؤمن بمصلحة عامة ؟ وقديماً قال الفقهاء « فاقد الشيء لا يعطيه » ان الأمر لا يصلح الا على يد القوي العادل الذي وصفه السيد الأفغاني . نعم ! ان المصلحة العامة لتتطلب رجلاً صلب العود ، صحيح الايمان ، سليم الفهم ، واسع الادراك ، كثير المشاورة ، يتنخل الرأي ثم يستبد في تنفيذه . لا يقول : « عيبتي وكرشي » بهذا تخلص الأمم من مساقط الضعف والتفكك . والاّ كانت آراء عذبة ، يستسيغها الخيال ، ولا تقرها الحقيقة . تنتهي نظريات ، كما بدأت تمنيات .

عارف النكدي

العمل لمصر

بعث دولة وإحياء مجد

كتاب من القطع المتوسط ، يقع في مئتين وست عشرة صفحة ، وضعه الأستاذ محمود كامل المحامي . ولا بد لنا — قبل ان نتناول هذا الكتاب بالبحث — من كلمة مجملة نقولها في الموضوع من حيث هو : « العمل لمصر » .

لقد اصبحت الوشائج الفكرية والثقافية والاقتصادية بين الشعوب — بعد ان طوى العلم ما كان بينهن من مسافات وابعاد — مُحكمة متشابكة . فما من مذهب أو رأي ، ينشأ في بلد ، الا تراجع صداه في البلد الآخر ، مهما كان بين البلدين من اختلاف في : العنصر ، واللغة ، وفي منازع الحياة ومناحيها ، لذلك قل ان يقوم اجنبي عنا بدعوة من الدعوات — ولا سيما القومية او الوطنيه او السياسية — الا كان لها عندنا مستمع بل مجيب . ويكثر عدد هؤلاء المستمعين والمجيبين او يقلون ، على قدر ما يكون لهذه الدعوة من هوى في النفوس ، واستعداد لها عند اصحاب هذه النفوس .

فاذا كان ذلك كذلك ، في حق الأبعد الأجنب ، فما عسى ان يكون الأمر في « عمل لمصر » يقوم به رجل من مصر ، لبعث دولة وإحياء مجد . وأمته أمتنا : لغةً وعنصراً . وحالها حالنا : مرضاً وضعفاً . ومتى كان الداء واحداً ، فلا بد ان يكون الدواء واحداً ايضاً .

وعلى هذا ، فالكتاب ليس لمصر وحدها ، ولكنه لهذه الشعوب المبعثرة المتفرقة ، التي تجمعها هذه الأمة العربية الواحدة .

استهل المؤلف كتابه ، بأن كشف عن حقيقة النهضة القومية في مصر ، فأنكر على الأحزاب المصرية التي قامت بعد سنة ١٩٢٠ ان تكون هي التي أيقظت الشعور الوطني فقال : « فاحساس المصريين بحقوقهم ، وتمردهم على كل من يعتدي على هذه الحقوق قديم ، اقدم من أي حزب سياسي قائم في مصر

الآن ، بل ان تاريخ مصر الحديث ، ناطق بأن الزعامة التي كانت تقود المصريين الى تلك الأهداف الوطنية ، أرشد وأجرأ ، واشد ايماناً برسالتها . »

والكاتب لا يرسل كلامه هذا ارسالاً ، منقطعاً عن الدليل ، بل يضرب عليه مثلاً : موقف السيد عمر مكرم سنة ١٨٠٥ ، وما كان من مطالبه القومية الصريحة الواضحة . ثم هو يمضي في تعداد هذه المواقف والمطالب ، ويعود في موطن آخر من الكتاب ، فيذكر ثورات المصريين على الفرنسيين سنة ١٧٩٨ و ١٧٩٩ و ١٨٠٠ . وثوراتهم على الانكليز ، وما نشب بين الفريقين من مواقع سنه ١٨٠٧ و ١٨٨٢ وثورة عرابي سنة ١٨٧٩ ونهضة مصطفى كامل سنة ١٨٩٥ ودعوة زغلول سنة ١٩١٩ . وقد عاد فنوه بهذه الحوادث تنهويهاً أرضى الحق وعزة مصر

ويمتاز المؤلف بأنه لا يؤله زعيماً ، ولا يدعو الى عبادة ثائر أو قائم ، بل يدلل على ان أكثرهم خلقتهم الثورات والحادثات ، لا انهم هم الذين خلقوها .

اعتبر ذلك في ما يقوله في سعد ، وسعد زعيم مصر الأكبر ، بل قدوة الأقطار العربية عامة : « والشعب المصري هو الذي « اكتشف » سعد زغلول فانتخبه وكيلاً للجمعية التشريعية . والشعب المصري — بقوته الجارفة — هو الذي جعل سعد زغلول زعيماً وطنياً أثناء ثورة عام ١٩١٨ . فحمله على ان يسخر مواهبه لمهاجمة اوضاع ، يشهد ماضيه بأنه كان يقرها ، في وقت لم يكن الشعب قد جرفه فيه الى الاتجاه الجديد » .

وما قاله عن « اكتشاف » الشعب المصري لسعد زغلول ، قال مثله عن « اكتشاف » الشعب الانكليزي لـ (تشرشل) .

نقول : اذا كان للشعب فضل في « الاكتشاف » فان للزعماء الحقيقيين فضلاً كبيراً في انهم استحقوا ان يكونوا أهلاً « للاكتشاف » وطلبة (للمكتشفين) .

وآخذ الزعماء المصريين ، بأنهم واجهوا الرأي العام من غير برنامج محدد ، وخص بالنقد منهم سعداً نفسه ، لأنه لم يكن له « الا برنامج ساذج يتلخص في شيئين : الاستقلال ، وحكم الشعب بواسطة الشعب » .

ونحن نوافق المؤلف في كثير من هذا الذي يشكو منه · ونزيد عليه فنقول: ان الشرق العربي بلاؤه بهؤلاء الزعماء ، وهم هم ضعفاً واستخذاءً في كل قطر من الأقطار العربية · غير ان هذه التماثيل الجوفاء ، من الذي خلقها فسواها أصناماً ، ثم عبدها ، أليس هو الشعب نفسه ؟!

أما ما أوخذ به سعد ، من ان برنامجه كان (ساذجاً) فلعل اكثر القائمين بالنهضات القومية يجعلون مناهجهم في مطلع دعواتهم ، مقتضبة موجزة ، تفادياً من القيل والقال ، والنقاش والجدال ، على عكس ما يفعله زعماء الأحزاب السياسية متى ألفوا احزابهم ودعوا اليها ·

والمؤلف يريد اتحاداً يعيد مصر العظمى الى حدودها التاريخية ، فيتبسط في الموضوع ، ويتوسع في الحدود تبسطاً وتوسعاً ، ما يحتملها اعصاب الساسة اليوم ، ولا تطمئن لها قلوبهم ··· وحبذا لو سمي هذا الاتحاد عربياً لا مصرياً ··· ان المؤمنين بقضيتهم ايماناً حقاً لا يهمهم اسمي هذا الاتحاد : مصرياً ، أم شامياً ، أم حجازياً ، أم يمنياً ، أم نجدياً (وهي الأقطار التي أدخلها المؤلف في حدود مصرالعظمى) وانما يهمهم الاتحاد نفسه ؛ غير ان الناس ليسوا كلهم مؤمنين · والالفاظ لها قيمتها في نفوس أمثال هؤلاء الناس ، وهي تفتح مجالاً للوسواس الخناس ···

وبعد ان يؤلف المؤلف هذا الاتحاد من أقطار عربية بحتة ، وبعد ان ينقل عن ابراهيم باشا انه قال : « لست تركياً ، وقد قدمت الى مصر طفلاً ، ومنذ قدومي غيرت شمس مصر دمي فجعلتني عربياً » وينقل عنه بعد ذلك قوله « ··· اننا الآن ننتسب الى شعب انبل واكثر تنوراً · الى هذا الشعب العربي الذي سبق اوربة في الحضارة ، وزين تاريخه باقامة المدن الزاهرة والآثار الفخمة التي غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس الى وادي النيل بل الى حدود ايران » ·

نعم بعد ان يقول المؤلف ما قاله ، وبعد ان ينقل ما نقله ، عن مصر ، وعروبة مصر ، وأهداف مصر العربية ، وعن تعرب من يقيم بمصر ·

ثم بعد هذا كله، وبعبارة أصح في ثنايا هذا كله، يرفع صوته منكراً ما سماه بـ «الخرافة الأثيمة» التي تقول: «ان مصر قد ظلت منذ فجر التاريخ مستعمرة للشعوب التي غزتها ...» فيقول: ان مصر لم تكن للغازين مستعمرة بل كانت لهم مقبرة.

ويسرد في جملة ما يسرده على صحة ما يقول: «... وقد ظلت مصر ولاية رومانية ست مئة وسبعين عاماً. انتهت بغزو العرب لمصر في عام ٦٤٠ ميلادية. فعاد المصريون يثبتون مناعتهم التاريخية ويفنون الغزاة الجدد في قوميتهم. اذ ظلت اللغة القبطية رغم الغزو العربي لغة الدواوين الى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك. أي أنها ظلت كذلك خمسة وأربعين عاماً وتكررت ثورات المصريين في خلال حكم العرب فكان الخلفاء يحترمون ارادتهم وينفذونها».

ثم راح المؤلف يعدد هذه الثورات: ثورة ثورة.

ولعل في مثل هذا التردد: بين عروبة مصر، واهدافها الكبرى، وبين مقاومة مصر للعرب والعروبة، تناقضاً بيناً لا يوفق بينه الا الرجوع الى التاريخ الحق. والتاريخ الحق: ان العرب اذا كانوا غزوا مصر، كما غزاها غيرهم، بل كما غزا كل شعب الأرض التي تديرها؛ إذ يندر -- ان لم نقل يستحيل — ان نجد شعباً متمدناً ولد في الوطن الذي هو فيه اليوم — فان العرب يوم فتحوا مصراً، اتخذوهـا دار قرار لهم، فأصبحوا اهلها كما أصبحت كل أرض للذين فتحوها فاستقروا بها. فليس بجائز ان يقاس العرب في مصر بالغزاة الطارئين ثم ينجلون. ولو أنا قلنا غير هذا لخالفنا الواقع، ولناقض المؤلف رأيه الذي أبداه، وأهدافه التي يرمي اليها من وراء تأليفه. ان العرب في مصر، اما ان يعدوا بعد هذه المئات الطوال من السنين أهل البلاد، أم لا؟ فاذا كذبنا انفسنا والتاريخ وعددنا العرب في مصر طرّاء كسائر الغزاة، فقد سقطت حجة المؤلف بأن مصر مقبرة الغزاة، فمن ملك أرضاً الف وثلاث مئة سنة وتزيد، ولا يزال يملكها وسيملكها باذن الله وقوة أبنائها العرب الى ما شاء الله، فلا يقال ان هذه الأرض مقبرة

له . وان كان أهل مصر العرب قد أصبحوا أصحاب البلاد حقاً فلا يجوز ان يقول فيهم المؤلف ما قاله في غيرهم .

فاذا وافقنا المؤلف في ما قلناه فانا لنرجو أن يتداركه في طبعة جديدة ان شاء الله .

والأستاذ ينبه المصريين في كتابه لما بيّته لهم الاستعمار . ويريدهم ان يعتمدوا على أنفسهم ، ويستشهد لهم بقول من قال : ان اعتماد الشعوب الضعيفة على المساعدة الخارجية في السياسة العملية ، ان هي إلاّ مقامرة .

ويحث المصريين على العمل في الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، ونشر العلم ، ورفع مستوى السواد الأعظم من المصريين ، وهم صغار الملاك وصغار العمال ، ويشير الى الادارة الحكومية والى مواطن الخطأ والضعف فيها . ويدعو الى اصلاحها .

والكتاب صحيح اللغة واضح العبارة ، إلاّ هفوات قد لا يسلم منها كتاب .

ع . ن

سياسة الغد

برنامج سياسي واقتصادي واجتماعي

وضعه الأستاذ مريت بطرس غالي

وهو يقع في مئة وسبعين صفحة ، جيد الطبع ، حسن الترتيب والتبويب ، أخرجته مطبعة الرسالة بمصر . ويدل هذا الكتاب على ما دل عليه الكتابان السابقان « الأداة الحكومية » و « العمل لمصر » من ان في مصر نهضة فكرية جديدة ، أخذ يشعر القائمون بها ، الداعون اليها ، ان الشرق العربي — وفي طليعته مصر — يجب ان يعدل عن أساليبه العتيقة ، وينتهج في الحياة منهجاً جديداً ، يتفق والعصر الحاضر ، ومتطلباته المتعاقبة والمتطورة .

وصف المؤلف الفاضل بكلمات موجزات حالة مصر — وهي حالتنا نحن العرب كافة — فقال : « شغل فكرنا جميعاً بعلامات الضعف في النظام السياسي والقومي ، ومظاهر التفكك الاقتصادي والاجتماعي . وشاهدنا في السنتين الأخيرتين على

له . وان كان أهل مصر العرب قد أصبحوا أصحاب البلاد حقاً فلا يجوز ان يقول فيهم المؤلف ما قاله في غيرهم .

فاذا وافقنا المؤلف في ما قلناه فانا لنرجو أن يتداركه في طبعة جديدة ان شاء الله .

والأستاذ ينبه المصريين في كتابه لما بيّنه لهم الاستعمار . ويريدهم ان يعتمدوا على أنفسهم ، ويستشهد لهم بقول من قال : ان اعتماد الشعوب الضعيفة على المساعدة الخارجية في السياسة العملية ، ان هي إلاّ مقامرة .

ويحث المصريين على العمل في الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، ونشر العلم ، ورفع مستوى السواد الأعظم من المصريين ، وهم صغار الملاك وصغار العمال ، ويشير الى الادارة الحكومية والى مواطن الخطأ والضعف فيها . ويدعو الى اصلاحها .

والكتاب صحيح اللغة واضح العبارة ، إلا هفوات قد لا يسلم منها كتاب .

ع . ن

سياسة الغد

برنامج سياسي واقتصادي واجتماعي

وضعه الأستاذ مريت بطرس غالي

وهو يقع في مئة وسبعين صفحة ، جيد الطبع ، حسن الترتيب والتبويب ، أخرجته مطبعة الرسالة بمصر . ويدل هذا الكتاب على ما دل عليه الكتابان السابقان «الأداة الحكومية» و «العمل لمصر» من ان في مصر نهضة فكرية جديدة ، أخذ يشعر القائمون بها ، الداعون اليها ، ان الشرق العربي — وفي طليعته مصر — يجب ان يعدل عن أساليبه العتيقة ، وينتهج في الحياة منهجاً جديداً ، يتفق والعصر الحاضر ، ومتطلباته المتعاقبة والمتطورة .

وصف المؤلف الفاضل بكلمات موجزات حالة مصر — وهي حالتنا نحن العرب كافة — فقال : « شغل فكرنا جميعاً بعلامات الضعف في النظام السياسي والقومي ، ومظاهر التفكك الاقتصادي والاجتماعي . وشاهدنا في السنتين الأخيرتين على

الأخص اهتماماً عظيماً بمشا كلنا الداخلية في جرائدنا ومجلاتنا ومحاضراتنا وفي حديث الناس عامة ، وترجع هذه الظاهرة الجديدة في حياتنا القومية — على ما أظن — الى انا أثر اكتساب حريتنا الوطنية انتقلنا الى عصر جديد في تاريخنا ، حتى بدأنا نشعر بأن مستقبلنا القومي أصبح الآن في أيدينا ، وليس لأحد سوانا ان ينظمه أو يكونه ، وقد غطت قضية الاستقلال خلال العشرين عاماً الماضية على شؤوننا الداخلية الى حد ما ... وكم كانت خيبتنا عظيمة حين عدنا من الشؤون الخارجية الى الشؤون الداخلية ، فوجدناها في منتهى الضعف والتقهقر » .

« وحالة مصر في الحقيقة لا تدعو الى الاطمئنان : فأمامنا اضطراب مستمر في الحياة القومية ، وازمة محققة في الآداب العامة ، ومشاكل اقتصادية واجتماعية قد تصل في القريب العاجل الى الحد الأقصى من الخطورة . وليست تلك العوامل بخافية على أحد »

« ... زد على ذلك ان عدم الاستقرار السياسي والاداري يجعل الوزارات التي تتوالى على كراسي الحكم غير قادرة على ان تعد برنامجاً للاصلاح والتقدم » الى أن يقول :

« واذا كانت سماء مصر ملبدة بغيوم الأخطار الخارجية والمصاعب الداخلية ، فجدير بنا ألا نرهب هذا ونخشاه ، ولنطمئن على كل حال الى ما في قلوب المصريين من عز وشهامة واخلاص في خدمة الوطن » .

انتهى المؤلف من هذا العرض والوصف ، الى برنامجه الاصلاحي : الشؤون السياسية والادارية ، وهي مباحث الباب الأول ، تناول فيها النظام النيابي ، وسوء استعمال الحكم النيابي ، وتكلم عن الادارة ، وعن الرأي العام ، وعن أعمال الحكومة والخطط العامة .

وفي الباب الثاني ، عالج المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وبحث عن الثروة الزراعية ، ومستوى المعيشة ، ونقص التغذية ، وانتشار الأمراض المتوطنة .

والباب الثالث جعل موضوعه الخطط الاقتصادية والاجتماعية ، وهذه هي الناحية العملية في الموضوع ، وهي أكثر ما تهمنا منه . غير ان هذه الخطط لا تخرج عن

انها أبحاث علمية قيمة ، ولكنها لا توصل الى الحل العملي الذي أصبح الناس في أكثر هذا الشرق العربي يرجونه ويتطلعون اليه .

لقد عُرف الداء ووُصف الدواء . فكان ماذا ؟

كان أن انقضت السنون على طبع هذا الكتاب ، ونشر ما فيه من الرأي الصواب الذي كان من حقه أن يحدث تطوراً اجتماعياً في الحياة السياسية المصرية ثم العربية . فلم يكن شيء من هذا ، وظللنا حيث كنا ؛ نؤلف الكتب وننشر الآراء ، وننظر الى جيل جديد لانعرف متى يجيء ، وما عسى أن يكون منه؟

ان الأنظار العلمية ، والاحصاءات ، والمقارنات والمقايسات شيء حسن لا بد منه ، ولكنه لا ينفذ من ذات نفسه ، الا اذا تقدم المخلص الجبار فأخذ الأمة بشدقيها يباعد بينهما ، ثم يفرغ الدواء في جوفها شاءت أم أبت . ولا نذهب بعيداً في التمثيل على رأينا بأن الاصلاح لا يقوم بالكتابة والخطابة وحدهما ، بل نستعير قول المؤلف نفسه : « ونشعر ونحن نسطر هذه العبارات انها ليست جديدة بل امتلأت بها أعمدة الجرائد السياسية ولا يزال يرددها الكتاب والخطباء حتى ابعد الناس عن التمسك بها والسير على مقتضاها » .

أما الباب الرابع فخصه المؤلف بالدفاع الوطني ، والباب الخامس بالشعور القومي ووسائل التربية ، وفي هذين البابين من المباحث القيمة ، والآراء السديدة ، ما يخلق بالجيل الحاضر أن يطلع عليه ، وبالجيل الناشئ أن يتدارسه .

فلهؤلاء المؤلفين الفاضلين الشكر على ما أتحفوا به الشعب المصري خاصة ، والأمة العربية عامة من هذه الكتب الممتعة .

ع . ن

تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم

تأليف عيسى اسكندر المعلوف

عضو المجامع العلمية في مصر ودمشق وبيروت والبرازيل

وضع الأستاذ المعلوف هذا التاريخ في كتيبين من القطع الصغير يقع كل

منها في ما يقرب من مئة وخمسين صفحة · اختصرهما من كتابه المطول (الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية) وقد حرص المؤلف كل الحرص على أن يجمع في هذين الكتيبين ما اتصل به من قولة أو نكتة نسبت لأحد الذين ترجم لهم ، أو شعر أهمله قائله أو نسي أن يدونه مدونه ·

لذلك جاء في هذا الشعر ، ولا سيما ما نسب منه الى اليازجي الكبير الشيخ ناصيف ، الغث والسمين ، بل غلب فيه غثه سمينه ·

ونحن نشكر للمؤلف عنايته بوضع هذين الكتيبين تنويهاً بذكرى الأسرة اليازجية التي لها اليد البيضاء في خدمة اللغة العربية ·

ع · ن

وادي الفرات ومشروع سد الهندية

تأليف الدكتور احمد سوسة

طبع في مطبعة المعارف في بغداد سنة ١٩٤٥ فجاء في ٣٤٣ صفحة من القطع المتوسط

هذا هو الجزء الثاني من كتاب « وادي الفرات » النفيس · فقد بحث المؤلف في الجزء الأول منه عن الفرات من منابعه الى بحيرة الحبانية · وبحث في هذا الجزء عن الفرات من الرمادي شمالاً الى سد الهندية جنوباً · وذكر ان الجزء الثالث سيشتمل على شؤون هذا النهر العظيم من سد الهندية الى شط العرب · أما الجزء الرابع فسيعالج مشروعات الاسقاء بمياه الفرات في المستقبل ·

ان من يقرأ الجزء الثاني من هذا الكتاب بإمعان يحكم بطول باع المؤلف في شؤون الاسقاء وهندسة المياه ، فهو قد قضى خمس عشرة سنة مهندساً للري في العراق فاستطاع ان يقتل هذه الموضوعات درساً ولذلك سد كتابه هذا فراغاً كبيراً في لغتنا الضادية ·

وقد تناول المؤلف بالبحث أهم الجداول التي تشتق من الفرات بين الرمادي وسد الهندية ، كجدول الصقلاوية (وكانت العرب تسميه نهر عيسى) وجدول ابي غريب

(وكان اسمه نهر صرصر) وجدول اليوسفية ، وجدول اللطيفية ، ثم ذكر مشروعات المهندس الشهير ولككس ، وتطورات مجرى الفرات في التاريخ ، وأنهى الكتاب بدراسة سد الهندية وما ينشأ عنه من الأنهار والجداول .

وفي الكتاب رسوم وصور وخارطات كثيرة . ولغته حسنة في الجملة ، لكن فيه مصطلحات لا نوافقه عليها ، منها قوله مثلاً سدة الهندية بدلاً من سد الهندية ، فالسد اسم يدل على المسناة ، أي ذلك الحاجز الذي يقام في وجه النهر اما لتخفيف سرعة مياهه ، واما لخزن تلك المياه . وليس السد هنا مما يجوز ان يصاغ منه مصدر على وزن فعلة للدلالة على المرة . ولم ترد السدة بالتاء بمعنى المسناة . ولم استسغ قوله « زمن الصيهود » ولو قال « زمن الضحل » لكان أصلح . والضحل رقة الماء في النهر والغدير وغيرهما . وهو أيضاً اسم يدل على الماء القليل ليس بذي عمق ج أضحال وضحال وضحول .

ومما وضعناه أو حققناه في « معجم الألفاظ الزراعية » من المصطلحات المتعلقة بالمياه : صَبِيب بمعنى Débit وسِكْر بمعنى Vanne ومَشْبَرة بمعنى Emissaire وهي القناة الأساسية لصرف الماء ، والسَرَب (ج أسراب) بمعنى Collecteur وهو القناة التي تتلقى الماء من المصارف Drains وتسيلها الى المشبرة ، والقناة والترعة بمعنى Canal والسَرِيّة والفَلَج بمعنى Rigole ، والخليج والجَدْول بمعنى الكبير من الفُلْجان أي Rigole principale الخ . فمن الضروري أن تتوحد هذه المصطلحات وسائر المصطلحات العلمية في بلادنا العربية .

مصطفى الشهابي

الاصلاح الزراعي

طبع في مطبعة مصر وجاء في ٩٧ صفحة من القطع الصغير

هذا كتاب صغير في حجمه كبير في نفعه ، أصدره السيد مريت غالي من « جامعة النهضة القومية » في مصر ، وهم عصبة من رجال الاصلاح يتناولون في ابحاثهم نواحي شتى من مرافق الحياة المصرية ، ويعالجون طرائق اصلاحها في كتب يصدرونها على الناس منها هذا الكتاب الثمين .

والاصلاح الزراعي في مصر من أهم الموضوعات المتصلة بالمجتمع المصري . فأراضي مصر الزراعية قد ضاقت بسكانها ، وهي موزعة توزيعاً لا عدل فيه ، ذلك بأن الملكية الكبيرة تبلغ ٣٧ ٠/٠ من مجموع الأرض الصالحة للزراعة ، أي ان ما ينيف على مليوني فدان مصري من تلك الأرض (وجملتها قرابة ستة ملايين فدان[1]) تتألف من أملاك كبيرة يملكها أفراد ليس عددهم بالكبير . أما الأملاك الصغيرة التي يملكها الفلاحون ولا يزيد واحدها على خمسة فدادين فمساحتها دون مليوني فدان .

وقد نشأ عن ازدياد سكان القطر ضرورة ملحة لاصلاح زراعي يتناول ملكية الأرض وايجارها والعمل فيها ، وهي الموضوعات الثلاثة التي عالجها المؤلف في كتابه .

ففي الموضوع الأول يرى تقييد الملكية الكبيرة بأن يكون الحد الأعلى لها مائة فدان مصري ، فلا يجوز للشخص الواحد ان يبتاع اكثر منها . وليس من رأي المؤلف ان تعمد الحكومة الى شراء الأملاك الكبيرة الحاضرة جبراً ، وبيعها من الفلاحين على أقساط (وهو ما تم في بعض البلاد الأوربية) ، بل من رأيه ان تترك هذه الأملاك لأصحابها ، فتتلاشى مع الزمن بانتقالها الى الورثاء ، ما دام كل شخص يملك ملكاً كبيراً يكون بحكم القانون المقترح غير قادر على تزييد مساحته بطريقة الفراغ أي الشراء .

ويرى المؤلف ان ثلاثة أفدنة مصرية تكفي لمعيشة فلاح وأسرته فتكون هذه المساحة حداً أدنى للملكية الصغيرة . ومن رأيه الغاء الأوقاف الذرية ، وحصر أملاك الدولة وأملاك الشركات العقارية الزراعية على ايجاد الملكية الصغيرة ، وإجمال القطع المجزأة على حسب الطريقة التي تتبعها مصلحة التأريف (المساحة) في ديار الشام . وجميع هذه الآراء حسنة وتطبيقها غير صعب على من عندهم مضاء في العزيمة .

أما ما نرى فيه صعوبة فهو رأيه في اتخاذ حد أعلى لأجرة الأرض وحد أدنى لأجرة العامل الزراعي . والصعوبة منبعثة من كون ازدياد السكان في مصر

(١) الفدان المصري أربعة دونمات نظامية وعشرون في المئة من الدونم أي (٤٢٠٠) متر مربع .

يفوق كثيراً ازدياد الأرض التي تجهز للفلاحة في ذلك القطر الشقيق . ولهذا لا بد في هذا الأمر ان يعمل قانون المزاحمة عمله او ان يبقى قسم من الفلاحين بلا عمل . ومهما يكن الدواء الذي ورد في ذلك الكتاب الثمين مفيداً وناجعاً وضرورياً فهو في نظرنا لا يحول دون حاجة الفلاح المصري في المستقبل الى مهجر يعمل فيه كالسودان المصري والعراق والجزيرة ، اللهم الا اذا تمكنت الحكومة المصرية من ايجاد ارض زراعية جديدة في القطر المصري نفسه .

وبعد انني انصح كل رجل يعنى بالشؤون الزراعية ان يقرأ هذا الكتاب النفيس .

م . ش

جغرافية شبه جزيرة العرب

تأليف السيد عمر رضا كحالة طبع في مطبعة الترقي بدمشق

سنة ١٣٦٤ — ١٩٤٥ ص ٥٩٧ (القطع الكبير)

اعتمد الأستاذ كحالة في تأليف كتابه على مصادر شرقية وغربية منها القديم ومنها الحديث فدلّ على سعة نفس ودؤوب محمود . وقد قام بواجب نحو قراء العربية فأخرج لهم كتاباً جامعاً شتات المعلومات المتفرقة عن الجزيرة توسع في النقل وقد يورد النصوص برمتها او يكثر من شرح اشياء في الحاشية ليست داخلة في الموضوع . وحبذا لو جرى قلم مؤلف هذه الجغرافية في كتابة مختصر لهذا الكتاب تحذف فيه الأسانيد أو اكثرها ويكتفي من النقول بما يتعلق بجغرافية الجزيرة مباشرة حتى يتناول الكتاب كل من يحب الانتفاع به في وقت قليل . وقد جوّد المؤلف في وضع فهارس لكتابه كفهرس البلدان والرجال والشعوب والقبائل والمذاهب والحكومات والكتب . فسهل بذلك على المراجعين فشكراً له على ما بذل من العناية بهذا التأليف الطريف .

محمد كرد علي

ديوان الغزي (مخطوط)

هو ابو اسحق ابراهيم بن عثمان الغزي الشاعر المجيد المتوفى سنة ٥٢٤ كان له في عصره شهرة ذائعة وصيت بعيد عرف أدباء تلك العصور مكانته واعترفوا بتفوقه وشهدوا ببراعته . وتناقلوا شعره في كثير من كتبهم واستشهد علماء البلاغة بالكثير من شعره ومعانيه البديعة وحسن صناعته الشعرية .

وترجمه معاصروه واهل قرنه واثنوا عليه واول هؤلاء على ما رأيته الامام الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ في تاريخه الكبير ، والامام الأديب ابوالبركات عبد الرحمن الأنباري في نزهة الألباء . والعماد الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ في خريدته وتلا هؤلاء ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فقد نقل شيئاً من شعره في معجم البلدان وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ في تاريخه الكبير المعروف بالكامل . والحافظ محب الدين ابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣ في تاريخ بغداد وابن خلكان في وفيات الأعيان . وذكره من أهل القرن الثامن ابو الفدا في تاريخه المشهور والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية . ومن اهل القرن الحادي عشر ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب . والأديب محمد العرضي الحلبي في مجموعته الخطية .

ثناء الأدباء عليه وعلى شعره واستشهادهم به

قال الأنباري في النزهة : واما ابواسحاق ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي فكان أحد الفضلاء ومن يضرب به المثل في صنعة الشعر ومحاسن شعره كثيرة فمنها قوله :

ان يكرهوا نظم القريض فعذرهم باد كحاشية الرداء المعلم
هم محرومون عن المناقب والعلا والشعر طيب لا يحل لمحرم

ومنهـا قوله :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة[1] باب الدواعي والبواعث مغلق
لم يبق في الدنيا كريم يرتجى[2] منه النوال ولا مليح يعشق

(١) في ابن خلكان وفي ديوانه : قالوا هجرت الخ .

(٢) في ديوانه وأماكن متعددة هكذا : خلت الديار فلا كريم يرتجى

ومن العجائب أنه لا يشترى ويخان فيه مع الكساد ويسرق

ثم قال : وكان ابو الفتح محمد بن محمد بن ابراهيم الطبري الأديب يقول غير مرة في المذاكرة اذا استحسن شيئاً من شعر نفسه · هذا يشبه شعر الغزي ·

وقال ابن خلكان في ترجمته : ذكره ابن النجار في تاريخ بغداد · وابن عساكر في تاريخ دمشق · والعماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه وقال انه جاب البلاد وتغرب واكثر التنقل والحركات وتغلغل في اقطار خراسان وكرمان ولقي الناس ومدح ناصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان بقصيدته البائية التي يقول فيها ولقد ابدع فيه :

حملنا من الأيام ما لا نطيقه كما حمل العظم الكسير العصائبا

ومنها في قصر الليل وهو معنى لطيف :

وليل رجونا ان يدب عذاره فما اختط حتى صار بالفجر شائبا

ثم قال وله في القصائد والمطولات كل بديع · ومن شعره وهو مما يستملحه الأدباء ويستظرفونه قوله من جملة قصيدة :

اشارة منك تكفيني واحسن ما رد السلام غداة البين بالعنم

حتى اذا ضاع منها القرط من دهش وانحل بالضم سلك العقد في الظلم

تبسمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منتثر في ضوء منتظم

وقال ابو الفدا في حوادث سنة ٥٢٤ وفيها توفي ابراهيم بن عثمان الغزي · ومولده سنة ٤٤١ وهو من الشعراء المجيدين فمن قصائده المشهورة قصيدته التي مدح فيها الترك التي أولها :

أمط عن الدرر الزهر اليواقيتا واجعل لحج تلاقينا مواقيتا

ومنها : في فتية من جيوش الترك ما تركت للرعد كراتهم صوتاً ولا صيتا

قوم اذا قوبلوا كانوا ملائكة حسناً وان قوتلوا كانوا عفاريتا

وقال العماد الحنبلي في الشذرات في وفيات سنة ٥٢٤ وفيها ابو اسحاق الغزي ابراهيم بن عثمان شاعر العصر وحامل لواء القريض وشعره كثير قاله (الذهبي) في العبر · وقد اكثر الصلاح الصفدي من الاستشهاد بشعره في مواضع كثيرة

من شرحه للامية العجم . وجاء في آخر معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص للعلامة عبد الرحيم العباسي في شرح قوله :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله   وهذا دعاء للبرية شامل

البيت من الطويل ونسب لأبي العلاء المعري ونسبه ابن فضل الله لأبي الطيب المتنبي ولم أره في ديوان واحد منهما والشاهد فيه حسن الانتهاء . اهـ

اقول البيت ليس لواحد من هذين . وهو لصاحبنا الغزي وهو موجود في ديوانه المخطوط الآتي ذكره . وهو آخر بيت من قصيدة يمدح بها مكرم بن العلاء مطلعها :

قلوب الورى اشرا كهن الشمائل   وشهب العلا افلا كهن الفضائل

على ان العباسي نفسه انشد للغزي بعد اسطر من هذا الباب قوله :

بقيت بقاء الدهر ما ذر شارق   وغار جديد المكرمات والمجدا

ديوانه

في رحلتي الى اللاذقية من نحو ١٥ عاماً زرت نقيب اشرافها الفاضل الشيخ محمد محاسن الأزهري قاضي الموصل قديماً فمن جملة ما وجدته في مكتبته القيمة نسخة مخطوطة من معجم البلدان لياقوت . ونسخة مخطوطة من ديوان ابي اسحاق الغزي وقيدت ذلك عندي . ومنذ ثلاث سنوات حضر أحد انجاله الى حلب فأعربت له عن رغبتي في استنساخ هذا الديوان . فذكر ذلك لوالده فكان المنعم المتفضل بإعارته وارساله مع ولده . وقد كتب قديماً على ظاهره بخطه الحسن . استنسخه الفقير محمد بن خالد بن خليل الأزهري الحسيني اللاذقي النائب في مركز ولاية الموصل عفا الله تعالى عنهم في ٢٣ محرم سنة ١٣١٨ . وتحت ذلك بخطه ما نصه :

استنسخ ولم يقابل علي الأصل لما فيه من التحريف والتصحيف . فعلى هذا النسخة محررة في الموصل عن نسخة هناك . ويظهر انها منقولة عن النسخة التي هي في مكتبة امين بك بن ايوب بك الجليلي وهي مكتبة خاصة ذكرها الدكتور

الفاضل داود الچلبي في كتابه مخطوطات الموصل وقال ان من جملتها ديوان ابي اسحق الغزي (تام محرر سنة ٩٩٤)ولم يذكر غيرها في مكتبات الموصل .

اشتغالي بهذا الديوان

رتبت هذا الديوان على حروف الأبجدية ثم كلفت ناسخاً باستنساخه على مقتضى ترتيبي له على ما فيه من تحريف وتصحيف والقصد من ذلك ان تسهل علي مقابلة ما اجده من شعره في ترجمته المذكورة في تواريخ متعددة وما اعثر عليه في كتب الأدب كشرح الصلاح الصفدي للامية العجم فقد أكثر فيه من شعره وكمجموعة مخطوطة عندي مخرومة الأول والآخر للأديب الشيخ محمد العرضي الحلبي فقد ذكر له سبع صحائف .

على ان الغزي وان كان قد تنوسي في القرون الأخيرة فقد تنبه له في عصرنا هذا فاضلان جليلان الأول الشاعر الكبير السيد محمود سامي باشا البارودي المتوفى سنة ١٣٢٢ ﻫ فانه ذكر صاحبنا في مختاراته التي جمع فيها ما اختاره من شعر ثلاثين شاعراً من فحول الشعراء سردهم في خطبة كتابه . ذكر له في الجزء الأول في باب الأدب ١٢٥ بيتاً وفي الجزء الثالث في باب المديح ٧٨٥ بيتاً وفي الجزء الرابع ١٠٥ المجموع ١٠١٥ بيتاً .

الثاني صديقنا وزميلنا الفاضل الأديب الشيخ بهجة الأثري البغدادي فقد كتب عنه مقالةً ضافية في مجلة الزهراء المصرية (ج ٤ م ٣) ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ أي منذ تسعة عشر عاماً . قال في مطلعها منذ ثلاثة أعوام تقريباً اطلعت على ديوان صغير لهذا الشاعر فراقني شعره وعلقت منه في ذهني أبيات رقيقة لم يكد يمحوها من صحيفة ذاكرتي كر الغداة ومر العشي فكانت سبباً لاثارة البحث عن قائلها ونشر صحيفته بعد ان طوتها يد الدهر منذ أزمان . ثم بعد ترجمته التي نقلها عن ابن الأثير في كامله وعن ابن خلكان قال : اما نسخة الديوان التي بيدنا فهي سقيمة الخط كثيرة الغلط ولعل عمرها لم يبلغ قرناً واحداً . وهنا علق صديقنا الأديب الجليل السيد محب الدين الخطيب على هذه العبارة ما خلاصته : ونحن لاعجابنا بهذا المقال واهتمامنا بهذا الموضوع بحثنا عن ديوان الغزي في القاهرة فوجدنا نسخة منه في خزانة علامتنا الجليل الأستاذ احمد تيمور باشا والنسخة كتبت سنة ١٢٧٦ ﻫ . وصفحاتها ٢٢٣ واسطر الصحيفة ٢٥

ثم ذكر السيد الأثري خطبة النسخة البغدادية للناظم وقد جاء في آخرها : وقد جمعت له مما قلت فيه وفي غيره الف بيت • وكذلك يقول لنا ابن خلكان : وله ديوان شعر اختاره لنفسه وذكر في خطبته انه الف بيت • والنسخة المصرية كما ترى تبلغ ٥٥٠٠ بيت • وقد جاء في خطبة النسخة التي نقلنا عنها نسختنا • وقد جمعت له مما قلت فيه وفي غيره نبذة خمسة آلاف بيت الخ وهي في ١٦٥ صحيفة كل صحيفة ٣٣ سطراً فيكون المجموع نحو ٥٥٠٠ بيت كالنسخة المصرية • فعلى هذا تكون كلمة خمسة قد سقطت من تاريخ ابن خلكان ومن النسخة البغدادية •

على ان السيد الأثري قال • وقد جد بنا الحرص على احصاء ابيات نسختنا فاذا هي تنيف على (١٢٥٠) بيتاً اه ولعل الناظم او غيره اقتضب من الديوان هذا المقدار وعلى هذه النسخة اطلع ابن خلكان وغيره وذكر ان ديوانه في الف بيت ان لم تكن كلمة خمسة قد سقطت من تاريخه • والنسخة الموصلية التي هي أم نسخة اللاذقية • والنسخة المصرية اتفقتا على ان ديوانه ازيد من خمسة آلاف بيت • ثم أورد السيد الأثري في مقالته سبع صحائف من شعره • ثم قال وفي الجملة فان جل هذا الديوان ان لم أقل كله درر وغرر تشهد للغزي بالبراعة في الصناعة ولو لم يكن فيه سوى ماأزجيناه بين يديك من المقاطيع السحرية والأبيات السائرة لكفى •

فما في هذه المقالة من شعره وما في مجموعة الأديب العرضي الحلبي وما في مختارات البارودي وما في ترجمته في عدة مواضع وما في شرح لامية العجم وما في المعجم لياقوت كل ذلك قابلته على النسخة التي استنسختها وصححته بقدر الامكان وذلك يقرب من نحو نصف الديوان • ووجدت له فيما تقدم احدى وثلاثين بيتاً لا وجود لها في نسختنا فأثبتها في الآخر مع العزو الى الكتاب الذي وجدت فيه •

وفي دار الكتب المصرية نسخة تحت رقم (١٢٢) في قسم الأدب بقطع الربع في (١٢١) ورقة بخط معتدل الى الجودة أقرب وعلى حواشيه تفسيرات وتوضيحات تفيد أن قارئه أو مالكه كان على علم باللغة والشعر • وخط الديوان واحد من أوله الى آخره بخط عمر بن محمد مشعل العلوي فرغ منه سنة ١٠٩٩

ولاعادة النظر فيما صححناه ولتصحيح الباقي نحتاج الى النسخة المصرية ليكون هذا الديوان صالحاً للنشر وليستفاد من غرره ودرره •

(حلب) محمد راغب الطباخ

آراء وأنباء

انتخاب عضو عامل

انتخب المجمع العلمي العربي في جلسته المنعقدة في ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٦ الدكتور حسني سبح رئيس الجامعة السورية عضواً عاملاً في المجمع مكان المرحوم الأستاذ أديب التقي . وقد صدر بذلك مرسوم جمهوري رقم ٨١ مؤرخ في ١٩ كانون الثاني سنة ١٩٤٦

القنبلة فارسية الأصل

قرأت في مجلة المجمع العلمي العربي في مجلدها العشرين ص ٣١٠ و ٤٠٧ مقالة للعلامة عبد القادر المغربي عنوانها (قنبرة ؟ قنبلة ؟) قصد فيها البحث عن منشأ هاتين الكلمتين وانتهى في بحثه الى انها فرنسية الأصل من كانوبور محرفة ومقلوبة من بور وكانون Bourre de canon حسب الاضافة التركية فأردت أن أبين منشأ كلمة قنبلة أو قنبرة الحقيقي ، موقناً ان الأستاذ لا بد أن يسر بالأبحاث التي تؤدي الى الحقائق اللغوية وان جاءت مخالفة لرأيه . وخاصة بعد أن أظهر في مقالته انه غير متأكد مما ذهب اليه ، فقد قال في ص ٣١١ : « فالقنبلة اذن سيبقى اسمها على جهالة أصلها وغموض نسبها متمكناً في السنتنا . الخ » وقال في ص ٤١٥ : « ذلك ان نبقى متمسكين به [بما ذهب اليه] ما دمنا لم نجد قولاً أقوى ، ونقلاً أرضى . حتى اذا وجدناه جنحنا اليه وعولنا عليه » .

فأبادر الى القول ان اصل خمبرة وخنبرة وقومبارة وقمبرة وقنبرة وقنبلة هو (خمبارة) الفارسية . وهذه مركبة من كلمتين : (خُم) بضم الخاء المعجمة واسكان الميم ، (وبارة) . فمن معاني خم الجب وهو الزير والخابية . وكلمة حب نفسها محرفة من خم ، أو من كلمة (خُمب) بضم الخاء واسكان الميم والباء وهو الزير

الكبير ، والدن ؛ أخذها العراقيون من الفرس بحكم المخالطة والجوار وحرفوها الى حب . ومن معاني خم أيضاً نقّارة كبيرة من شَبَه كانوا يضربونها في الحروب . وأما بارة فمن معانيها السور وجدار القلعة . فيكون معنى خمبارة حب السور ، أو قل نقارة السور ، سموها بهذا الاسم تشبيهاً بالحب أو بالنقارة لأنها مجوفة وأضافوها الى السور لأنها ترمى من على الأسوار الدفاع عن القلاع والمدن أو تضرب بها الأسوار والقلاع لهدمها . او لأنها عند انفلاقها يسمع منها صوت كصوت النقارة الكبيرة عند ضربها . وأرجح أنها مأخوذة من المعنى الأول أي من معنى الحب . وظهر لي ان الفرس أنفسهم خففوا كلمة خمبارة فقالوا (خمبرة) وأرادوا بها الزير الصغير وقذيفة المدفع هذه المجوفة هكذا وجدت في الترجمة التركية للمعجم الفارسي المسمى (برهان قاطع) . ولا أرى حاجة الى بيان انتقال كلمة الخمبارة الى ان صارت قنبلة فهو مفهوم من كلام الأستاذ نفسه . وأقرب الكلمات الى الأصل الخمبرة .

كانت الخمبرة تصنع من حديد ويملأ جوفها من فوهة فيها بالبارود وبقطع حديد وكرات صغيرة من الحجارة وما أشبه ، وكانت توضع لها فتيلة وتقذف بمدفع هاون . وكانت الغاية من استعمالها السحق والهدم بجرمها ونشر مرميات كثيرة عند انفجارها واحداث الحريق من اشتعال بارودها . ولذلك ورد في كلام الأمير حيدر الشهابي الذي نقله الأستاذ المغربي قوله : « وقد ضرب من عكا قنبرة وفقعت ثلاث عشرة كلة » .

وأما الكلة فكانت كرة مصمتة ، وكانت تصنع من الحجارة ، ثم صنعت من حديد أيضاً . وكانت تقذف بمدفع أملس الداخل والغاية منها الهدم فقط . حتى اذا ما اخترعت المدافع المحززة الداخل بطل استعمالها .

نرى في كلام حيدر الشهابي قوله : « وصارت القنابر والكلل تتساقط على القلعة مثل المطر » وقوله : « في ليلة واحدة انجاب اثني عشر الف قطعة من كلل وقنابر » وقوله : « وجد ابراهيم باشا في يافا كلل ٧٠٠٠ ، قنابر ٢٠٠ » ومثله قول

الخواجا نيقولا الترك : « الكلل والقنابر » و « اندفقت عليهم الكال والقنابر » .
فلو كانت الكلة والقنبرة شيئاً واحداً لاكتفى هذان المؤرخان بأحد الاسمين .
فكان على الباحث التفريق بينهما .

وعلى ذكر الكلل اقول جاء في مقالة الأستاذ أنه يرى ان اسم كلة أتى من مشابهتها الكلة التي تلعب بها الصبيان ، وان بعضهم يراها مأخوذة من كله المخففة من كلاه وقال آخر انها محرفة من كلمة كرة العربية . أقول ان كلمة كلة ، سواء فيها الكرة الصغيرة التي يلعب بها الصبيان وقذيفة المدفع المصمتة ، هي من (جُلَّة) الفارسية بضم الجيم وتشديد اللام وفتحه واظهار الهاء ، ومعناها كرة . ومنها الجلاهق . وكأنها جمع جلة . جاء في القاموس : الجلاهق كعلابط البندق الذي يرمى به وأصله بالفارسية جلة وهي كبة غزل . ا ه . وأنا لا أشك في أن كرة ، التي نظنها عربية ، هي أيضاً محرفة ومعربة من جله .

أما كلة المدفع فيقابلها بالفرنسية boulet ، وأما boule فتطلق على كل جسم كري . والخمبرة هي الـ bombe . وأما القذيفة فيقابلها projectile وتطلق على كل ما يقذف ، سواء أقذف باليد أم بالمقلاع أم بالقوس أم بالبندقية أم بالمدفع أم بالرشاش أم بغيرها . فيجب تخصيص اسم لكل نوع من القذائف على حدة .

والطلقة أو الاطلاقة يقابلها coup ، و bourre هي الدكة .

ذكر الأستاذ انه لم يجد كلمة قنبلة في المعاجم الفارسية . هذا شيء طبيعي ، لأن قنبلة ليست فارسية ولو أنها فارسية الأصل . فلو فتش عن كلمة خمبارة أو خمبرة لوجدها .

وقال انه سأل أحد أفاضل الايرانيين هل كلمة قنبلة فارسية ، فاجاب كلا ليست فارسية . حقٌ للايراني ان يجيب بالنفي على هذا السؤال . لكن لو كان سأله : ماذا تسمون بالفارسية قذيفة المدفع المجوفة القديمة التي كانت تصنع من حديد وتحشى بالبارود وقطع الحديد وصغار الكرات ؟ لأجاب : خمبرة .

الموصل　　　　　　　　　　　　　　　　الدكتور داود الچلبي

كل ما استفدناه من كلام الدكتور الفاضل أنه أعرب عن رأيه الشخصي في ان كلمة (خمبرة) فارسية وأن أصلها (خمبارة) : (خم) بمعنى خابية و (بارة) بمعنى سور القلعة • فالخمبرة معناها خابية السور • وقد أطلقها الايرانيون على قذيفة المدفع • واتفق لي ان اجتمعت بالدكتور حشمت معين الإيراني فسألته عن فارسية خمبرة : فقال إننا معشر الايرانيين نستعملها منذ نحو قرنين في الشعر والنثر ولا نعلم من أية لغة جاءتنا ولا ما هو أصلها بالتحقيق فكان يحسن بالدكتور الچلبي أن ينقل الينا رأي علماء ايران في هذه الكلمة ولا يكتفي بقوله سموها • وما نقله عن (برهان قاطع) إنما أفادنا ان (خمبرة) تطلق على الزير الصغير وعلى قذيفة المدفع وقد سكت عن بيان أصلها • ولقائل ان يقول إن سكوته يشعر بأنها فارسية ما دام معجمه انما وضع لتدوين الكلمات الفارسية • ونردّ هذا بأن شمس الدين سامي ذكر في معجمه كلمة (خمبرة) ولم يشر الى أنها فارسية برمز (فا) ولا عربية برمز (ع) فدل على أنها تركية لأن معجمه إنما دوّن فيه الكلمات التركية • وربما ذكرت المعاجم العربية أيضاً كلمة (قنبرة) التي هي أخت (خمبرة) وفسرتها بقذيفة المدفع ولم تشر الى أصلها بل ان بعض كتاب العرب يدعي بأن قنبلة عربية مأخوذة من معنى جماعة الخيل • وان قنبرة عربية أيضاً مأخوذة من اسم الطائر • فاللغات الثلاث إذن تدعيها بادئ بدء • واذا حققت مع أربابها طالباً الدليل على قولهم انتهى الجدل مع كل منهم الى أنهم يعدّونها بين الفاظ لغتهم لكونها دخيلةً مستعملةً في منثورهم ومنظومهم • أما أصلها فلم يتصدّ له أحد على ما نعلم كما تصدينا نحن بتفصيل مسهب شرحنا فيه الظروف والمناسبات التاريخية التي نشأت في خلالها كلمات (قنبلة وقنبرة وخنبرة)

وياليت زميلنا الدكتور أشار الى كيفية نشوء (خمبرة) في لغة الفرس وتولدها على ألسنتهم وأسنة اقلامهم • وفى أي عصر نبتت • وعلى أية طريقة وقع التوليد فيها • وما هي الظروف التي جعلت علماء ايران يشتقون ويتجوّزون • وضباطهم وجنودهم يلفظون ويستعملون • مع ان الذين أخذنا عنهم القنابر وصنع القنابر ليسوا من الترك ولا الفرس ولا العرب • وقد حملوا الينا القنبلة أو (القنبرة) وحملوا معها اسمها بلغتهم فتلقفناه منهم • وأفرغه كل منا — ترك وعرب وفرس — في قوالب لغته • وجرس لهجته • وما ذكره الدكتور رأي من جملة الآراء في أصل (خمبرة وقنبرة) ليس هو بالقول الفصل • وإن دلّ على سعة العلم والفضل •

المغربي

تعليقات على مقال (دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها)

أخذ الدكتور الفاضل أسعد طلس ينشر مقاله الممتع « دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها » الذي أشبعه بحثاً وتدقيقاً في مجلة المجمع العلمي العربي وقد اجاد وافاد وقد وقعتُ أثناء مطالعتي على بعض أمور تحتاج الى التعليق على هذا البحث النفيس فجئت بهذه الملاحظات خدمةً للعلم والأدب وإتماماً للعمل الجليل الذي قام به فأقول :

١ — خزانة الكتب التي بضاحية سلوان

جاء في المجلة (م ٢ ص ٢٣٩) ان في ضاحية سلوان خزانة غنية يربو عدد كتبها على أربعة آلاف قد يكون بينها مخطوطات قيمة وان صاحب تلك الخزانة هو الشيخ محمود اللحام .

ويظهر ان الدكتور الذي لم تُتح له زيارة الخزانة ولا الاطلاع على كتبها اعتمد رواية بعض الذين أخطأوا في تحقيق اسم صاحب الخزانة فنقلها كما تلقاها عنهم ولا لوم عليه ولا تثريب في ذلك . اما الخزانة فهي للشيخ محمد جمعة النجار واعظ السجن المركزي في بيت المقدس وقراها وهي تشتمل على المقدار المذكور الا انها تقتصر على الكتب المطبوعة وليس فيها شيء من المخطوطات كما ذكر لي صاحبها ذلك .

٢ — دار كتب المسجد الأقصى وربعة سلطان المغرب

وصف الدكتور الربعة الشريفة التي كان خطَّها بيمينه علي بن عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق المرّيني ملك المغرب سنة ٧٤٥ في ثلاثين جزءاً ويظهر ان الدكتور لم يطلع على أن خمسة أجزاء من هذه الربعة المكتوبة في الرّق قد فُقد فوضع مكانها خمسة أجزاء كتبت في ورق صقيل بالحروف المغربية كأصلها وكان فقدها قبل ١٤٥ سنة تقريباً كما أن جزءاً من الأجزاء الأصلية قد سُرق من المسجد الأقصى في السنين الأخيرة وأخرج من فلسطين وقد ذهبت مساعي المجلس الاسلامي الأعلى وحكومة فلسطين في سبيل استرداده عبثاً في فلسطين ومصر .

وهذه الربعة كان مدادها الذي كُتبت فيه من فتيت المسك ودهن الورد وربما أضيف اليها أحياناً الزعفران الشعري وهي ثالثة ثلاث ربعات شريفة كتبها ذلك

الملك أولاها لبيت الله الحرام وثانيتها لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام والثالثة للمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ٠

وقد وصفتُ هذه الربعة قبل سرقة الجزء الآخر في مجلة الفتح في المجلد الخامس (ص ٥٩٠ و ٥٩ ومن ص ٦٠٥ الى ص ٦٠٧) وأتيت في هاتين المقالتين على اعيان الوقف التي وقفها الملك على قراءة ربعته الشريفة في المسجد الأقصى واستطردت الى ان الربعتين اللتين كتبتا برسم مكة والمدينة لم نعلم عن وجودهما فيهما ٠

٣ — صاحب مختار الصحاح

ذكر الدكتور في (م ٢٠ ص ٣٤٧) كتاب جامع الأصول لأحاديث الرسول من مخطوطات دار الكتب الخالدية وقال عنه انه كتب على هامش الجزء التاسع منه ان محمد بن أبي بكر الرازي صاحب مختار الصحاح المتوفى سنة ٧٢٠ (كذا) قد قرأه على الصدر القونوي المتوفى سنة ٦٧٣ وكانت قراءته عليه سنة ٦٦٦٠

ان صاحب كشف الظنون عندما تطرّق الى ذكر مختار الصحاح قال ان صاحبه توفي بعد سنة ٧٦٠ وأظنّ ان الدكتور كتبها كذلك سنة ٧٦٠ الا ان منضد الحروف أخطأ فجعلها ٧٢٠ كما تقدم وحصل ذلك الخطأ ٠ الا ان تاريخ وفاة صاحب مختار الصحاح كانت بعد سنة ٦٦٦ التي قرأ كتابه على الصدر القونوي فيها وقد تكون امتدّت حياته الى ما بعد سنة ٦٩١ حيث ألّف كتاب روضة الفصاحة برسم السلطان المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان الأرتقي الذي ارتقى عرش آبائه في ملك ماردين سنة ٦٩١ اذ لا يُعقل ان يقرأ كتابه على الصدر القونوي ثم يعيش الى سنة ٧٦٠ وقد كنتُ كتبتُ مقالة مسهبة عن صاحب مختار الصحاح في مجلة المجمع « م ٨ من ص ٦٤٦ الى ٦٦٥ »

٤ — ابن الهائم

ذكر الدكتور ان كتاب « تعاليق على الخصائص النبوية » في الخالدية أيضاً هو من تأليف ابي العباس الشهاب احمد بن محمد بن الهائم الحاسب الفرضي (م ٢٠ ص ٣٤٧) « هذا المؤلف دفين بيت المقدس الذي كان اختار الاقامة فيه في أواخر ايام حياته

وهو يرقد في مقبرة مأمن الله التي تضمّ المئات من عظماء المسلمين وعلمائهم بالقرب من مغارة شهداء الحروب الصليبية وعدّتهم سبعون الفاً وبهذه المناسبة أُشير الى ان نسخة مخطوطة من كتاب « المناسخة في عمل الشبّاك » الذي اخترعه واستخرجه في علم الفرائض في خزانة كتبي . ويرجح ان هذين المخطوطين ألفهما ابن الهائم في جوار المسجد الأقصى حيث كان يقيم في دار هداية الله .

٥ — ابن زوج ابي عذيبة

قال الدكتور ان كتاب قصص الأنبياء لأحمد بن محمد بن عمر المقدسي الشافعي من مخطوطات دار الكتب الخالدية كتب على صدره أن احمد هذا شُهر بابن أبي عدسة ومع ان عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس والخليل يقول عنه ابن زوجة أبي عُذيبة فان زميلنا الأستاذ كاظم الدجيلي قال عنه ابن أبي عدسة في مجلة الهلال (م ٢٨ ص ٦١٧) بصدد نسخة التاريخ المطول المحفوظ في مكتبة آل جميل ببغداد أقول ان زميلنا الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ذكره ايضاً باسم ابن ابي عدسة نقلاً عما جاء في النسخة المحفوظة في مكتبة آل الحسيبي بدمشق (م ٢٨ ص ٩٢٦ من مجلة الهلال نفسها) .

وقد كنتُ علقت على المقالين المذكورين في مجلة الهلال ايضاً (م ٣٠ ص ٨٦٢) مايلي:

« قصص الأنبياء عليهم السلام في مجلد ضخم كتب بأوله : « جمع كاتبه الفقير الى الله تعالى احمد بن محمد القدسي الشافعي الشهير بابن أبي عدسة » ولكنه استوقف نظري ان المداد الذي كتب به آخر الكلمة الأخيرة كان يظهر عليه الحدوث بالنسبة الى الكلمات الأولى التي يغلب عليها القدم فاشتبهت في الأمر وقرأت ما كتب بآخر الكتاب فاذا هو كما يأتي بالحرف :

« انتهى على يد مؤلفه الفقير الى رحمة ربه القدير احمد بن محمد بن عمر القدسي الشافعي الشهير بابن ابي عدسه (بدون نقط) لطف الله تعالى به آمين آمين آمين والحمد لله ربّ العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولشدّ ما كان دهشي عندما أنعمت النظر فوجدت انّ الكلمة التي بدون إعجام قد أزيلت نقطها بآلة حادة كالموسى لم يترك لها الا فتحة على الحرف الذي

قبل الهاء مما يبعث على الظن ان الكلمة عدينة أو عذيبة أو ما شئت غير عدسة » .

وذكرت في هذا التعليق انني وقعت في الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل لعبدالرحمن بن محمد بن مجير الدين الحنبلي على ما اطلع عليه الدكتور طلس من النسبة الصحيحة .

ولعل السبب الذي حمل من صحح النسبة من الناس على ذلك العمل هو ما أورده صاحب الأنس الجليل من ان المؤلف أورد في تاريخه المطول والآخر المختصر اشياء فاحشة من ثلب اعراض الناس فأعدمه بعض المطلعين عليه ضناً بكرامات من تناولهم المؤلف بالطعن والتشنيع . ويقول صاحب الأنس ان التاريخ المطول لم يظهر بعد وفاته كما ان التاريخ المختصر لم يبق منه إلا بعض كراريس متفرقة .

٦ — محمد بن فخر الاسلام الخيري

أورد الدكتور طلس بين مخطوطات دار الكتب الخالدية (المجمع م٢١ ص ٥٤) رسالة « الشهاب القابس في البيع والكنائس » لمحمد بن فخر الاسلام الخيري المكتوبة سنة ١٠٨٢ وقال انه لم يهتد الى مؤلفها .

أقول ان محمداً المذكور كان امام قبة الصخرة المشرفة في المسجد الأقصى . وله رسالة أخرى سماها « سؤال وجواب عن بيت المقدس » أتم تأليفها في أواخر جمادى الأولى سنة ١٠٨٢ . وهذه الرسالة في عداد المجموعة السابعة والأربعين من مجاميع الخالدية . وقد نسخها محمد فتح الله الديري في ١٤ شعبان سنة ١٠٩٠

اما موضوع هذه الرسالة فهو سقف المكان الواقع بقرية بيت لحم والذي بداخله المغارة التي يقال ان بها مولد سيدنا عيسى عليه السلام واعادة بنائه بالخشب والرصاص كما كان في السابق وترميم بعض حوائطه وانه يحرم التعرض للنصارى في ذلك .

ونسبة محمد الى الخيري تدل على انه ابن خير الدين الرملي الشهير المتوفى سنة ١٠٨١ وهو من مفاخر الاسلام حقاً .

وبعد فانني أشكر للدكتور اهتمامه وجهوده في بحث خزائن الكتب الفلسطينية وأخصه بالشكر على حسن ظنه بهذا العاجز مما يدل على طيب أرومة وحسن خلق وجزاه الله عن العلم خير الجزاء .

عبد الله مخلص

السعنينة والفنر

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

والسباسب يوم السعانين عند النصارى والعامة تلفظها «الشعانين» والسباسب جمع سبسب بمعنى المفازة ولليهود عيد المظال يخرجون به الى البراري فينصبون فيها مظال .
والسعانين جمع سعنينة وهي الزفن أو مطلق المظلة وما زال المسيحيون يقرنون يوم السباسب بالمطر ومن أمثالهم الشائعة «السعنينة دون مطر كالعروس دون جلوة» .

وكانت السعانين عند النصارى سعفاً من النخيل يحتفلون بها تذكاراً لدخول المسيح الى بيت المقدس قبيل الفصح عندما استقبلته الجماهير بسعف النخيل ثم تطورت بانتشار المسيحية فاتخذت الرياحين وأغصان مختلف الأشجار عند فقدان النخيل ولكن سعف النخيل ما تزال واجبة اذا وجدت ولعل أبرز أشكالها أيام النابغة الرياحين .

وتفنن المسيحيون في صنع السعانين وما يزالون يتفننون وقد يجمعون بين النخيل والرياحين وأغصان الشجر وغيرها مما لايزال متعة للناظر المتأمل .

ومن التقاليد المرعية عندهم ان السعانين تصنع شفاعة لحفظ حياة الأطفال والأولاد ولذلك كثيراً ما ينذر المسيحيون شمعات كبيرة تبلغ طول الطفل أو الولد يضمونها الى السعنينة وكثيراً ما تزيد على المتر طولاً .

وإذا كانت السعنينة في أصلها غصناً أو فنناً أو فنداً وكلها بمعنى الغصن فمن المعقول المقنع أن تسمى الشمعة الكبيرة التي تضم الى السعنينة فنداً .

أما استعمال أهل طرابلس للفند بمعنى الحزمة من الشمع فهو غير خاص بهم بل يستعمله عدد كبير من نصارى جبل لبنان «وهو ليس سهواً وقع فيه الأستاذ المغربي لبعد عهده فيه» فان من السعانين التي ما يزال النصارى يستعملونها الى اليوم ، نوعاً يزين بعدد من الشموع الصغيرة تحيط بالشمعة الكبيرة ، او توضع وحدها فكأن سعف النخيل تحولت فنوداً عند عدم وجودها وليس فى كل بلدان النصارى نخيل فسميت السعنينة غصناً أو فنداً ثم قرنت بالشمعة الكبيرة يختلف طولها باختلاف الولد الذي تصنع باسمه فسميت الشمعة فنداً وزين بعض الشعانين بحزمة من الشموع فأطلق على هذه الحزمة فند الشمع .

حنا نمر

فهرس الجزء الثالث والرابع من المجلد الحادي والعشرين